غادة السمّان

صفّارة إنذارٍ داخِل رأسي



الكاملة ٩

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

٩

صفّارة إنذار داخل رأسي

المشرف الفني : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
لوحة الغلاف الأول : « هبوب الريح » للفنان لوسيان ليفي – دورمر . رسمها عام ١٨٩٦.
لوحة الغلاف الأخير : المؤلفة ، لوحة زيتية للفنان جريجوري .
تنفيذ الطبـع : مطبعة دار الكتب – بيروت – لبنان

غادة السمّان

الأعمال غير الكاملة

٩

صفّارةُ إنذارٍ داخلَ رأسي

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت — لبنان

ص . ب ١١١٨١٣

تلفون ٣٠٩٤٧٠ — ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى

نيسان (أبريل) ١٩٨٠

الطبعة الثانية

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٥

الطبعة الثالثة

آب (اغسطس) ١٩٩١

مصارحـــة

١ ـــ هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرهـــا .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها ثانية (حرب ما) أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ـــ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ـــ ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما أنه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ـــ ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة ـــ إلا فيما ندر ـــ ولست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ ـــ أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه ـــ لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه ـــ أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل خارج عن طاقة البشر .

٤ — اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحوير في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ — « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري — مهما كان مبدعاً — هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص — أي مختارات من أعمالي — (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن — كما أتصور — في كتابة القصة) .

ثم إن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إلي أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ — ٩ — ٧٨

لا إهداء

لا أهدي هذا الكتاب الى أحد .

لا أجرؤ على اقتراف ذلك !

ليس فيه ما يطرب له الناس من اخبار . فيه الجرح الذي قد يشيحون بوجوههم عنه متجاهلين . وفيه صوت صفارة الانذار القادمة من الاعماق ، والتي قد يحاولون حجب صوتها خلف موسيقى الحوار اليومي الصغير .

من منكم يرضى بأن أهديه بعض صفارات الانذار التي أرقتني على طول عشر سنوات ما بين عامي ١٩٦٤ - ١٩٧٤ ، التي تغطيها رقعة هذا الكتاب والتي جعلت ليلي الحذر والترقب ، ووسادتي حزمة ديناميت ؟

وهل بينكم من يرغب حقاً بمشاركتي عذاب الوعي بصفاراتنا الجهنمية ؟ وهل ... وهل ؟..

غادة

١٠/٢/٨٠

١٩٧٤/٥/٣١

صفارة إنذار داخل رأسي

كلما جلست هذه الأيام لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار... يعلو داخل دماغي ، يمزّق أفكاري كلها ، ويملؤني بحس الخطر ، مثلما تشعر كائنات الطبيعة البريئة في الليل بأن شباك الصيادين تنتشر في الغابة حولها ، وان الشباك قد حيكت بحذق ودهاء ، وأن سكين الصياد لا ترحم ...

* * *

ليست صفارة الانذار هي ذلك الصوت المدوي الذي تطلقه الأبواق في أرجاء المدينة . هنالك أيضاً صفارات إنذار أشد شراسة وأكثر استفزازاً لحس الخطر ... إنها تلك الصفارات اللامسموعة ، تلك التي تنطلق في الأعماق خافتة ولا يسمعها أحد خارجك، لكنها قد تصمّ أذنيك . إنها تنطلق أمام ظواهر صغيرة هي بمثابة مؤشّر على الخطر الداهم ... انها تلك الحاسة التي تطلق صفارة إنذار داخلية وتدفع بالحصان البري وغيره من كائنات الطبيعة إلى الوعي بالزلزال قبل وقوعه . وهي حاسة يملكها الانسان إذا سمح لها بأن (تكون) ، ويستطيع سماع صوتها إذا أنصت .

* * *

عملاق مربوط إلى طاولة التخدير

هكذا أراهم يخططون للشعب العربي اليوم ... وأرى أعداءه وبعض المتواطئين على أرضه وتاريخه وذاكرته يلتفون حوله في ثياب الاطباء باحثين عن أسرع السبل لتخديره ... وبين الحين والحين يطير اليهم « خبراء أجانب » أخصائيون في قضايا تخدير الشعوب ، حاملين معهم وصفات جديدة لغسل دماغنا المثقل بالقهر والغضب والثورة ...

احساس عام يثقل على الصدور يوماً بعد يوم ... ليس مبعثه خطوة واحدة معينة ،

وانما هو حصيلة تحركات كثيرة ... وتيارات خفية ... كأن صيادين بارعين يتقدمون نحونا ويسوروننا بشباكهم ، يتحركون في الظلام بحذق وبخطى مدروسة ... يتحركون في كل اتجاه وعلى كل صعيد، وفي نفوسنا يتحول الغضب اليومي المحدّد إلى انطباع شامل بان الجو حولنا مثقل بالتواطؤ ، مكهرَب بخديعة ذكية مرسومة بدقة ، حتّى ليكاد الفرد العربي يلتقطها بغريزته ، ويعي الخطر في الجو عبر وجدانه قبل دماغه ...

فالعدوان على الشعب العربي ليس فقط عدواناً عسكرياً مصدره «اسرائيل» ... العدوان الأخطر هو عدوان المتواطئين ، وبينهم من هو غافل عن حقيقة ما يفعل وعن استغلال الخطة الامبريالية الصهيونية له بطرق غير مباشرة ، وتوظيفه (حتّى دون أن يقبض الثمن) لضرب القضية الوطنية ، أي لضرب نفسه وأساسات بيته وطعـــام أولاده ...

لم يكن العدو قط أشد شراسة مما هو اليوم ، والقضية الفلسطينية تمر بأخطر جولات محاولة تصفيتها . وكلما جلست لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار ، ويملؤني بحس الخطر .

أجل ! كلما جلست لأكتب هذه الايام ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الخطر والانذار ... وأحس أن أصابعي مكهربة وحلقي جاف بالقهر والترقّب وصدري مثقل بتشاؤم غامض وكلّي مسكونة بتوتر كائن بريء في الغاب يترصد به صيادون حاذقون يحركون شباكهم بحذق ...

بأي ثمن ، بأية وسيلة ، بعنف وغضب ولو بجنون ، علينا أن نقاوم كل محاولة لـ « تصفيتنا » أياً اتخذت هذه التصفية من أسماء مهذبة ...

علينا الا نخجل من اتباع الاساليب كلها للدفاع عن حياتنا وذاكرتنا وتاريخنا وأرضنا ...

٩ / ٢ / ١٩٧٣

نصب للحشاش المجهول !

لا ينقضي يوم إلا ونقرأ عن فنانين ومثقفين عرب قُدّموا إلى المحاكمة بتهمة تعاطي الحشيش أو أية مخدرات اخرى .

وبيروت تتحدث اليوم عن الاستاذ الجامعي الذي ألقي القبض عليه مؤخراً وفئة من الطلاب والمثقفين لأنهم كانوا يتعاطون مخدّر الحشيش .

وسوف يُقدمون إلى المحاكمة .

وستتخذ السلطات الجامعية اجراءات لمعاقبتهم ، وستكتب الصحف عنهم في صفحات الجرائم ، وستثرثر (التانتات) وعجائز المجتمع ويستفظعن الخطب الجلل ! ! .

غريب أمرنا !

لماذا يقدمونهم إلى المحاكمة ؟

ولماذا يعاقبهم القانون ؟

أليس من الاصح محاكمة كل فرد عربي لا يتعاطى المخدرات ، وذلك بتهمة انعدام الاحساس ؟ ! ... بتهمة انعدام الحس الوطني ، وانعدام الشعور بالمسؤولية ، وبتهمة اللامبالاة والبلادة القومية ، وعلى الاقل بتهمة الاسترخاء ! .

فكل ما يدور حولنا على الصعيد العربي العام وعلى الصعيد اللبناني المحلي يدفع بأي عاقل أو حسّاس دفعاً للهرب إلى رحمة التخدير... أي تخدير ... ما دامت آلاف القيود السرية والعلنية تحرمك من حرية الحركة من اجل التبديل .

أن تفتح نافذتك في الصباح لترى رجال الشرطة يطاردون الطلاب وينهالون عليهم بالهراوات ويشدّونهم من شعورهم كما تُشد البغال ، ويخيل اليك ان الشاب الذي كان وجهه ينزف هو ابنك ولكنك لم تتأكد لان ملامحه كانت مغطاة بالدم .

أن تعي ولو لثوان جدية التهديد الصهيوني في عالمنا العربي ...

أن ترى « الكرنفال » الهستيري الذي يرقص في صخبه المسؤولون بينما الوطن

يرتجف لزلزال الحرب ...

أن تستمع إلى مزيد من الحروب الخطابية في خطابات المسؤولين الراقصين في في الكرنفال بينما مستنقع الهزيمة ذو الرمال المتحركة يبتلع الجميع ببطء ولكن باستمرار...

أن يختص مسؤولونا بصيد الحيوانات خارج البلاد ، وبصيد البشر من العمال والمزارعين داخل البلاد ...

أن ترى صورة المزارع الذي اصطاده رجال الامن وهو يسقط صريعاً، وأن ترى صور أولاده اليتامى وأرملته إلى جانب صور أولاد المسؤول – الذي أمر بإطلاق النار– وهم يتزلجون على الثلج ويمارسون « السكي » في (سويسرا الشرق الاوسط) التي تحترق ...

أن ترى صور سيدات المجتمع في الحفلات يلتهمن أكداس الطعام والرجال ، ويضحكن للكاميرا ، ويشكين التخمة ويتحدثن للصحف عن الريجيم و (الاخلاص الزوجي) ، وترى صورهن وانت تبحث في الاعلانات المبوبة عن عمل لك ، ثم تجد نفسك مضطراً للهجرة عن الوطن من اجل اللقمة ...

ان تكون راكباً سيارتك الحقيرة وأولادك وفجأة تنطلق صفارة انذار ويهجم عليك رجال السير يدفعونك عن الطريق مثل كلب شرد في موكب يوليوس قيصر ، وتكتشف أن السبب ليس مرور سيارة اسعاف محملة بجريح مشرف على الخطر وانما مرور سيارة سوداء مسدلة الستائر تحمل حاكماً ما من حكامنا الذين تزداد الهوة بيننا وبينهم يوماً بعد يوم .

أن تحاول الوصول إلى حقك عن طريق القضاء فتضيع بين الشكليات والروتين وتخسر من المال في الحصول على حكم لصالحك أكثر من المال الذي رفعت الدعوى أصلاً لتسترده ...

أن ينكب بك الدهر فتحاول اخراج جواز السفر ، أو ميكانيك لسيارتك ، أو يصلك طرد بريدي ، أو تمرض فتدخل أحـد المستشفيات أي ان تضطر للاحتكاك بأي من المؤسسات الرسمية أو غير الرسمية فتواجه في كل لحظة مدى الاحتقار لانسانية الانسان في بلادنا ... ان لا تملك ثمن الدواء لطفلك المريض فيموت بين ذراعيك في ردهة المستشفى بينما يسافر المرفّهون للاستشفاء ...

أن يُقبض عليك بتهمة ما خطأً ، ويطلق سراحك بعد أن تعذب وتُهان وتضرب ، وتخرج من (النظارة) بيد محطمة بينما تمسك في اليد الاخرى بجريدة فيها مقال لمسؤول

سعيد يتغنّى بحريات المواطن اللبناني ...

أن يأتيك محصّل الضرائب ويناكدك ويتفنن في انتزاع كل قرش من ربحك وأن تدفع صاغراً وأنت تعرف ان هذا المال سيذهب هدراً إلى جيب فلان أو علان المسافر إلى أوربا لتوضيب صفقة ما يبيعك فيها .

أن ترتكب جريمة التفكير بهذه الاوضاع كلها ، وأن تمعن اجراماً فتفكر في كيفية تبديل الاوضاع عن سابق تصور وتصميم ...

أن تنتمي إلى حزب من اجل التبديل يعني انك « مخرِّب » ... ويعني أيضاً ملاحقتك وربما (اصطيادك) في احدى المظاهرات ...

ماذا تبقّى لأي انسان بالغ عاقل راشد وممنوع من محاولة تبديل أي شيء مما حوله لأن حكّامه (دائماً على حق)، ماذا أمامه اذا كان واعياً وحساساً وبالتالي معذباً سوى أن يهرب إلى عالم الجنون ... أو إلى التخدير ؟..

في بلد كبلدنا ، يجب اعتبار عدم التحشيش خيانة عظمى لأن الصحو سيقود الجميع إلى الثورة ... يجب منـــح الحشاشين أوسمة لأن ضميرهم الانساني والوطني حي بدليل هربهم إلى التحشيش ... يجب اصدار قانون يعتبر كل من لا يتناول المخدر خائناً ... ويجب اعتبار الحشاشين أبطالنا القوميين ، ويجب اقامة « نصب للحشاش المجهول » ...

ومنح الاوسمة والنياشين للحشاشين تقديراً لحسهم الوطني الحي .

أليس الحشاش العربي المعاصر هو « المواطن الفاضل » في « الجمهورية غير الفاضلة » الذي تمنعه الدولة من ممارسة واجباته وحقوقه وتفرض عليه « التحشيش الاجباري » حين ترغمه على قبول منطق القطيع المستسلم وتجبره على عدم الاحتجاج أو الثورة أو التظاهر ؟

وهل يمكن لمواطن ألا يتظاهر اليوم أو يثور أو يحتجّ الا اذا كان مخدراً أو حشاشاً ؟

ويا حشّاشي العالم اتحدوا ...

١٠ / ٩ / ١٩٧٣

« سويسرا الشرق » أم « فلسطين الثانية » ؟

بيروت اليوم ، يا اصدقائي ، ترتدي ملابس الحداد ... تتبدى معتمة حزينة . دم أسود يجري في شرايينها ، فشوارعها مطفأة الانوار ...

لماذا ؟

هنالك أزمة كهرباء سوف تنفجر مع الخريف حين يعود الناس إليها من الجبال . لاسباب فنية تكنولوجية ... إلى آخر هذه الاصطلاحات العلمية التي لا نستعملها في بلادي إلا قناعاً لحقيقة واحدة هي « الإهمال » !

المهم ان السلطات « الساهرة » على « الاشعاع » اللبناني تبدو في غاية الرضى عن ذكائها في مواجهة الأزمة : ستطفأ انوار المخازن كلها بعد السادسة مساء . ستطفأ أنوار الشوارع ما عدا شوارع بيوت النافذين ، آلات المعامل ستتحرك في ساعات محدودة . الرجاء من الشعب الاقتصاد في صرف الطاقة الكهربائية ... لا تبريد مركزياً للموظفين الصغار المساكين الذين يذوبون حراً ! ..

كل ذلك جميل . ولكن المسؤولين لم يتطرقوا إلى موضوع اساسي في البلدان المتحضرة ، أو التي تمتلك سلطاتها حساً أدنى بالمسؤولية : لماذا يحدث ذلك ؟ ومن هو أو هم المسؤولون عن فخ التعتيم الذي سيلف بيروت ؟ لماذا لا يُقدمون إلى المحاكمة العلنية ؟ الجميع يتحدثون عن هذه الفضيحة بلهجة الأمر الواقع كما لو كانت قضاءً وقدراً ، مثل الزلزال والصاعقة والحب ! .. والمفروض ان الطاقة الكهربائية علم لا نزوة ، ثم انه حتى للخسوف والكسوف حسابات وتوقعات إلا كسوف بيروت وكهرباءها ... (ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن أكتبه) !! .....

أقول : تجولت الليلة في بيروت ، وكان كل ما فيها مظلم كجرح عميق ، إلا ميدان السباق . فوجئت بالأنوار ملتهبة كما لو كنا في رابعة النهار ، لأجل من ؟ سباق أحصنة ؟ حفل ترعاه الطبقة المخملية النافذة ؟ ! تابعت السير إلى الكورنيش ، حيث يخرج الشعب الفقير بأطفاله للنزهة على أرصفته مجاناً هرباً من همومه وبيته المغزول

بخيوط عناكب الخيبات والأحزان ، محاولاً رغم ظروفه الموضوعية القاسية كلها ، الدخول في « سباق الحضارة » ، رغم انه لا يلقى العناية التي تلقاها (أحصنة السباق) !

بحرقة وجدتني أتساءل : لماذا لا تطفأ « بروجكتورات » حلبة السباق لتضاء بدلاً منها مصابيح الكورنيش للشعب المسحوق الذي يدرس بعض ابنائه على نورها أحياناً ؟

لماذا لا تقام سهرات مجتمع ثريات الكريستال على أضواء الشموع ، كما في العصور الوسطى ، ما دامت هذه الطبقة بممارساتها وموقعها وعقليتها تنتمي أصلاً إلى العصور الوسطى ؟ ! لماذا لا تطفأ أضواء كازينو القمار في جونيه لتضاء مصابيح بيوت البسطاء ، ملح الأرض ، ابناء الشعب الذين يعتاش أهلهم من اعمال اضافية قد تتوقف بسبب تقنين الطاقة في المعامل ؟ لماذا يتحمل نتائج الخسارة أفراد الشعب الفقير بدلاً من طبقة المستثمرين ، التي عقليتها هي أصلاً سبب الأزمة وكل أزمة ؟ !

(ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن اكتبه .) ...

ما أود قوله هو ، ببساطة ، انني اصفق لتعتيم بيروت ! .. أرحب بخلعها لقناعها المضيء الملون لتتبدى على حقيقتها مدينة مهددة بالخطر ... وقد يكون في تعتيمها — ولو بغير الازرق — تذكير لأهل هذه الرقعة من الوطن العربي بأننا في حاله حرب . فتعتيم المدن يرادف في الأذهان كلمة حرب . وقد ينعش منظر الظلام الموجع ذاكرة الغارقين في سحب الطمأنينة ، الواهمين ان لبنان هو «سويسرا الشرق» ، لا المرشَّح الأول ليكون « فلسطين الثانية » ...

فلتطفأ أنوار بيروت !

فلتخلع هذه المدينة أقنعتها ، ولتستسلم شوارع الحزن فيها لرعب الحقيقة ! وليعترف الجميع بأن شارع الحمراء ليس « الكارتييه لاتان » أي الحي اللاتيني الباريسي واننا لسنا في سويسرا ، والحياد هنا غير ممكن ، فنحن امتداد لتاريخ هذه الارض بصحرائها ورمالها وهزائمها وأمجادها ومصيرها ...

وإذا أصرّ البعض في سهراتهم على الحديث باللغة الفرنسية أو الكتابة بالعامية اللبنانية ، فان ذلك لن ينجيّهم من قدر الأمة العربية الذي هو قدرنا جميعاً . ولعل شوارع بيروت المعتمة تذكرهم بالمصير المعتّم الذي ينتظرنا جميعاً اذا لم نمسح الصدأ عن بوصلتنا وأسلحتنا ، وننفض التراب عن جذورنا ، ونواجه واقعنا كما هو .

من يدري ؟ ! ربما أضاءت شوارع بيروت المعتمة مصابيح ذاكرة الذين ينسون باستمرار اننا في حالة حرب وحالة خطر .

٣ / ٩ / ١٩٧٣

وجوههم ستطالها أظافر الشعب وأنيابه !

فلنحرق أقنعتنا !

فلنمزق عن شفاهنا ابتسامة المجاملة ، ولنخلع عن أهدابنا نظرة التردد الخائف شبه المهذب . ولنقل ما نؤمن به ، ولو استحالت الحنجرة محرقة، والحرف سكّيناً ...

فلنحرق أقنعتنا !

فوطني المثقل بخمرة المجاملات الخطابية ، المعذّب بمحاولات تخديره ، هو في حاجة إلى الكلمة بلا مواربة ، مهما قست !

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقف في ريح التاريخ غابة من الأشجار العارية ، بلا زينة ولا أضواء عيد ... ولنقل ما نؤمن به ... لنتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ببراءة عري الطفل لحظة ولادته ، وصدق صرخته الاولى .

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولنتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ... شؤون صغيرة، لكنها احياناً تلخّص مأساتنا بأكملها .

لنقل لحكامنا ، مثلاً ، اننا تعبنا في لبنان من مشاهدة صورهم وهم يتأبطون الصحون ويقفون أمام موائد الحفلات كل ليلة كل ليلة بين أكداس اللحوم على الموائد وعلى اجساد نساء « مجتمع الحفلات » ، كما لو كانوا في بلاط لويس الرابع عشر !

تعبنا من مشاهدة صور مسؤولينا يعيشون حياة « الدولشي فيتا » ، ينتقلون من حفل إلى آخر ، من وليمة إلى اخرى ، يرقصون ، يسبحون ، ينكتون ، يهرجون ، يصطادون ، يغازلون (بفتح الزين وكسرها ايضاً) ، ينظمون « القرّاديات » ،

ويتساجلون بالشعر ، يتزلجون في مياه « السان جورج » أو فوق ثلوج الارز ، ويعطون النصائح الطبيـــة ، ويعرضون آخر الازياء الرجاليـــة ، ويثرثرون عن عزوبيتهم وقصص حبهم أو حكايا زواجهم وطلاقهم وعن رأيهم في بريجيت باردو والزواج المدني وأحذية « بالي » والتهاب اللوزتين والسياحة في الباهاماس والصيد في ايران ، ويأكلون ويأكلون (الجبن وغير الجبن) ... ويتقنون القيام بكل شيء إلا بواجباتهم التي من المفروض ان الشعب جاء بهم أصلاً للقيام بها .

* * *

تعبنا تعبنا ، وتعبنا حتى أقنعتنا .

تعبنا من صورهم قرب قوالب الحلوى (الجاتوه) التي سممت في جنوب لبنان ١٤ طفلاً فقيراً ، لانهم التهموا حلوى وجدوها مرمية في الزقاق ، ومات اثنان منهم ربما في اللحظة نفسها التي التمع فيها « فلاش » التصوير ليلتقط صورة كروش المسؤولين ونجوم الحفلات امام قالب جاتوه هائل الضخامة .

ومسؤولونا جميعاً يصرّون على انهم من نسل دوريان غراي ، لا تعرف الشيخوخة اليهم سبيلاً ... كلهم مثل « فاوست » الأسطورة ، شباب دائم ، ولذا فهم لن يسمحوا لنا قط بالتساؤل : اذا كنتم تسهرون ليلاً وتصطادون نهاراً و « تحرتقون » مساءً ، فمتى تعملون ؟ ليس بين مسؤولينا من هو تحت الستين (فلنجاملهم ولنقل تحت الخمسين) ، إذن لا مفر لأي طبيب مبتدىء من ان يقرر انهم في حاجة إلى ساعات من الراحة بعد كل سهرة وسكرة !

متى يعملون ؟

متى يدرسون القضايا التي يغرق مركبنا في لجتها ؟ هل يسمح لهم وقتهم بالاطلاع على التطور التكنولوجي المرعب والسريع لعالمنا المعاصر ؟

* * *

أنا أؤمن بضرورة الراحة من اجل استمرار العمل .

وأنا ضد التزمت المفتعل ، وقد سبق لي ان حاربت ضد الصورة التقليدية للثوري ، التي تجرّده من انسانيته حين تصوّره إنساناً لا يضحك ولا يحب ولا يرتاد الملاهي ولا يسهر ولا يخفق قلبه لأنثى ... وأؤمن بأن من لا يعرف كيف يضحك ويحب لا يعرف كيف يعمل أو يحارب ... وأؤمن بأهمية الاجازة الاسبوعية وضرورتها لكل انسان ، ولكنني لا استطيع ان أفهم كيف يصير الاسبوع كله إجازة لدى مسؤولينا ، ما عدا

« ويك إند » عمل ! المفروض ان يعمل الانسان خمسة أيام — كحد أدنى — ويستريح في اليوم السادس والسابع . ولكن ماذا يحدث حين يستريح الانسان كل أيام الاسبوع ؟ وماذا يحدث حين يكون هذا الانسان رجلاً مسؤولاً رسمياً في دولة هي في حالة حرب — شاءت أم أبت — وقوات «اسرائيل» تحتل بعضاً من أراضيها الجنوبية احتلالاً رمزياً وعملياً . ويحتل التخلّف والاهمال بقية اراضيها ؟ ! .

مسؤولونا (السياح) في وطنهم ، الغرباء عن عالمنا ومآسينا نحن ابناء الشعب ، لا يعملون شيئاً . حتى حينما « يعملون » فالدور الوحيد الذي يمارسونه باستمرار هو الدور العشائري لعرّاب المآتم والافراح والتكريم . لذا فالمشروع الوحيد الذي يمكن أن يبحثوه — عن خبرة — هو أمر الحفلات ... لذا فجميع مسؤولينا مؤهلون للتدريس في « المدرسة الفندقية » ، ولتقديم الاستشارات في لوازم الافراح والليالي الملاح ، وهذه خبرتهم الوحيدة ، ومع ذلك يدهشني انه ليس بينهم من قرّر التدريس في « المدرسة الفندقية » ليفيد شعبه من خبرته اليتيمة !

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقلها عبر حناجرنا المزروعة بأشواك الخيبات وصبير الصبر ...

مسؤولونا من الهيبيز ! .. أجل من الهيبيين النادرين في العالم ، الذين تجاوزوا سن الشباب ولكنهم لم يبلغوا سن الرشد .

مسؤولونا من الهيبيز ، لأنهم من بعض مجتمع الحفلات ، من بعض مجتمع طبقة الـ ٤ في المئة الأثرياء عبر سرقاتهم « القانونية » و « الدستورية » ، العائشين على هامش واقعنا التاريخي والموضوعي ... مسؤولونا من الهيبيز ، لا لأن بعضهم يتعاطى المخدرات وتجارتها وزراعتها ولكن لأن التعريف الاول للهيبي هو انه الفرد الذي انفصل عن واقع مجتمعه وهرب منه ومن حقائقه إلى عالم يعيش فيه كما يشاء ، دونما حس بالمسؤولية أو بجذوره في أرضه وشعبه .

الا ينطبق هذا الوصف على مسؤولينا جميعاً — إلا فيما ندر — ؟..

* * *

اقول لكم : أشتهي أن أسمع ولو مرة بأن أحد مسؤولينا مرض بسبب أزمة ما (غير التخمة) ... أشتهي أن يصاب أحد مسؤولينا بانهيار عصبي مثلاً إثر كارثة من كوارثنا الوطنية ، (للتذكير ، اليكم هذه الامثلة : فضيحة هبـــوط اسرائيل في

مطارنا — مجزرة فردان — مأساة الجنوب المستمرة — فضيحة الكهرباء — الماء — السرقات رغم النوم والابواب كلها غير مفتوحة — المستشفيات الموصدة في وجه الفقراء ، أي ٩٦ بالمئة من الشعب — فضائح التعليم — الاحتكار — الغلاء — الغلاء — الغلاء) ....

إن الصحة الجيدة لمسؤولينا ليست دليل عافية وطنية ! صرنا نحلم بمسؤول نزيه ، يصاب بالجنون أو ينتحر ، مثلاً ، لنقيم له تمثالاً وطنياً ، فهو وإن عجز عن تقديم خدمة فعّالة لهذا الوطن ، أو عملاً ايجابياً واحداً ، فانه على الاقل استوعب ، ولو لثانية ، حقيقة مأزق مركب الوطن الذي حين يغرق سيغرق بالجميع ، ولن تكون هنالك قوارب نجاة لمجتمع الحفلات وأهل الـ ٤ في المئة بمن فيهم مسؤولونا .

* * *

مسؤولونا يجهلون كل شيء عنا ، يسمعون بأزمة الخبز ولكنهم لا يحسّون بها ولا يعونها . والحلوى المكدسة على موائدهم تزداد قوالبها ارتفاعاً بالأمتار كلما ارتفعت الاسعار . انهم الداء فكيف ننتظر منهم دواء ؟! ثم انهم وصحبهم نجوم الحفلات يحافظون على قواعد « الريجيم » ويأكلون الجاتوه لا الخبز ...

ومصير « أكلة الجاتوه » معروف يذكّرك فوراً بمفردات مثل: مقصلة، ثورة... إلى آخره .

وريثما يحدث ذلك ،

اقترح ما يلي : إنشاء وزارة جديدة هي وزارة الحفلات ، وإلحاق وحدة طبية بالوزير المختص لمعالجته من التخمة والسكري وارتفاع ضغط الدم ، ويمكن للوزير تطبيق قواعد اللذة الرومانية والطقوس الابيقورية بحيث يتنقل الوزير من حفل إلى حفل يأكل ثم يتقيأ كي يأكل من جديد على طريقة الأباطرة الرومان ... وله في نيرون مثال ونبراس .

وستكون مهمة « وزير الحفلات » حضور الولائم كلها ورحلات الترفيه بدلا من بقية الوزراء بحيث يتوفر لهم بعض الوقت للعمل اذا كانوا ينوون حقاً ان يعملوا .

و « وزارة الحفلات » التي أقترح استحداثها فوراً في لبنان ستكون أكثر الوزارات فعالية وأشدها انشغالاً ... ثم انها خدمة « وطنية » هائلة : سيكون لدينا « وزير حفلات » بدلا من « وزارة حفلات » و « هيبي » واحد في الحكم بدلاً من « حكم الهيبيين » !

وسلام على جمهورية الحلم التي حكامها هيبيون تجاوزوا الشباب ولم يبلغوا سن الرشد ! اقلبوا معي هذه الصفحات وسواهـــا ، وتفرّجوا معي على صور وجوههم المستّريحة وكروشهم المترهلة ، حيث لا مفر من ان تطالها ذات يوم اظافر الشعب وانيابه !

١٨ / ٥ / ١٩٧٣

كرنفال بيروت : تجدد أم تفاهة ؟ حيوية أم لامبالاة ؟

كرنفال في شارع الحمراء في ساعات السماح بالتجول ... الأرصفة مليئة بالفتيات اللواتي نسين (أو تناسين) ارتداء معظم ثيابهن ، والعابرون يستعرضون أجسادهن التي احرقتها أشعة الشمس . يبدو انهن انتهزن فرصة القتال لقضاء عطلة ممتعة على شاطىء البحر ... والشبان يفورون في المقاهي ، والازدحام على أشده في المقهى الذي تحطم زجاجه قبلها بيوم إثر قنبلة ...

موسيقى الضحك ، الحركة ، الاجساد المبللة بعطر الشمس وعرق الشهية للحياة .. الثرثرة ... أتأمل ذلك كله بذهول حقيقي .

اتساءل : هل النسيان ممكن ؟

ففي البرّادات ما تزال جثث القتلى من الطرفين لمّا تدفن بعد ... وما تزال الوجوه المشوّهة والأجساد المقطعة الأوصال مجهولة الهوية لما يتعرف عليها صحبها ، (وربما كانوا الآن يتسكّعون في شارع الحمراء) .. ورائحة البارود لما تنحسر عن الابنية بعد ...

رغم كل شيء ، عاد الكرنفال اليومي البيروتي كأن شيئاً لم يكن ..

ما تفسير هذه المظاهر العجيبة ؟ ... ترانا نرى (الحيوية) أم (اللامبالاة) ؟ مظاهر (للمرونة) أم (العدمية) ؟ هل هي القدرة على (التجدد) أم على (التفاهة) ؟

هل هي ظاهرة بشرية فريدة من ظواهر المقدرة على ابتداع (الحياة) أم هي مجرد ظاهرة (هرب) إلى أحضان التخدير اليومي ؟

لا أدري ماذا أسمي هذه الظاهرة. ماذا نسمي رجلاً يرقص (الروك اندرول) بحيوية وفي عنقه خنجر مغمد ؟

* * *

كاهن اسرائيلي تقرر فصله من معبد تل أبيب الكبير لامتناعه عن انشاد صلاة

«مجدوا الرب هلل» اثناء الصلاة التي اقيمت بمناسبة قيام «اسرائيل» . قال المنشد المفصول (ان المناسبة لم تكن تسمح بترديد هذه الصلاة) ...

لقد اخترع الانسان وسائل الكترونية كثيرة للكشف عن الكذب . هنالك آلات لكشف الكذب باحصاء دقات قلب الكاذب أو ضغطه أو كهارب دماغية خاصة ترتفع ذبذباتها اثناء الكذب ..

ولكن أحداً لم يخترع أي كومبيوتر يستطيع كشف كذب الانسان على ذاته ...

فالكاهن الاسرائيلي عاش لحظة المواجهة مع الذات . فقط حين طُلب اليه أن يتلو صلاة تمجد إنشاء دولة كل ما فيها هو ضد كل القيم السامية التي هي من بعض صفات الإله ...

وعجز عن الانشاد ... ونبت الشوك في حنجرته ..

يبدو ان (الايمان) يظل وحده ذلك الاختراع العتيق المذهل الذي يكشف للانسان مدى كذبه على نفسه عبر عريه أمام خالقه .

ولكننا لا نستطيع الاعتماد على (ايمان) الاسرائيليين لزوال عدوان «اسرائيل»!... ولا على (إيماننا) بحقنا ..

يبدو انه لا مفر من حلول اخرى ! ...

٤ / ٥ / ١٩٧٣

لا استراحة لمحارب في أرضنا !

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحـــارب »(*) ، رميت بقلمي ، وركضت أبحث عن طفلي الصغير في الحديقة ، وشاهدت القطة التي ولدت منذ أيام ترتمي فوق صغارها وتغطيهم بجسدها وترتجف .

انفجار ثان . وثالث . ورابع ...

لا نار . لا دخان . لا شيء سوى الصوت المدوي كالرعد . ولكن الشمس كانت تضيء ولم يكن الرعد هو الذي يصرخ ...

صباح اليوم التالي قرأت في احدى الصحف عن الانفجارات : كانت طائرات اسرائيلية قد اخترقت جدار الصوت ... وسببت هذه الاصوات المدوّية كالرعد .

أتساءل : الطائرات الاسرائيلية التي اخترقت جدار الصوت ، كيف لم تخترق جدار خدرنا الوطني ، جدار لامبالاتنا بما يدور حولنا من أمور اساسية خطيرة ، وانشغالنا عنها بصغائر الامور ؟ ..

صحيح ان هذه الطائرات الاسرائيلية لم تسبب هذه المرة أي أذى إلا الصوت المزعج ، ولكن أليس هذا الصوت وحده كافياً ليكون صفارة انذار تدوي في أعماقنا المبطّنة بألف جدار نسيان لحقيقة وضعنا ؟ ... صفارة إنذار تدوي في حياتنا جميعاً . وفي ايامنا المبعثرة التي لا يجمعها هدف واضح هو على الاقل الدفاع عن وجودنا وأطفالنا — على الاقل كالقطة في الحديقة التي هبّت غريزياً تحمي صغارها ؟...

فإلى جانب هذا الخبر : قرأت خبراً عن رصاص طائش قتل طفلة في لحظة الانفجارات الاسرائيلية إياها نفسها ... دار شجار بين اثنين لأمر تافه ، وتبادلا اطلاق الرصاص وقُتلت — كالعادة — عابرة سبيل .. أتساءل : الا تكفي الانفجارات ليكفّا عن شجارهما التافه وليلتفتا إلى العدو الحقيقي ، والهدف الوحيـــد الذي يستحـــق

(*) استراحة المحارب : عنوان صفحة في مجلة كنت من كتّابها يومئذ .

رصاصنا ؟ . اتساءل : حين تغرق الباخرة بكل من عليها ، هل يمكن لاثنين أن يتشاجرا اثناء غرقها بسبب دَيْن لأحدهما على الآخر ، أو لأي سبب آخر تافه ، ما دامت الباخرة تغرق عادة بكل من عليها ؟ ..

ورغم باخرة الوطن التي تغطس شيئاً فشيئاً في بحار النسيان كما غطست باخرة الهنود الحمر في صحاريهم إلى الابد ، فنحن ما نزال ركّاب الباخرة اللاهين عن الخطر الأكبر باهتمامات تافهة ، نتحدث عن هندسة الحدائق وصيد الفراشات وتحنيطها . ومدارس عرض الازياء وفتيات الاعلان ولعب « الفليبرز » وعجائز الجمعيات الخيرية وثرثرات الصبحيات وثرثاري الاحتراف السياسي ومعدّات التزلج على الماء وفوائد الصيد ومداواة الصلع والانتيكا والباربكيو والجاليه والسيفر و .. و ..

أم ترانا نهرب إلى ذلك كله كي نتلهى ونتخدر وننسى الباخرة التي تغرق بنا والأرض التي تهرب من تحت أقدامنا مثل الرمال المتحركة ؟ ...

اليأس ؟ ولمَ اليأس؟ لماذا نتأرجح أبداً بين عقدة العظمة وعقدة اليأس ؟ بين الصراخ بتعال (نحن مئة وخمسون مليوناً وهم ثلاثة ملايين ، ما همنا ؟) وبين النواح بأسى : الدول الكبرى تساندهم. لا نملك شيئاً أمام طاقاتهم.. لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...

لماذا لا نفكر بالاختراع الانساني الأقدم من اختراع النار المسمى بـ : العمل؟ ...

في الصحيفة نفسها رأيت في صفحة الجرائم صورة فتاة جميلة وإعلان عن اختفائها ورجاء البحث عنها .. (فتاة ضائعة ترتدي ... خرجت ولم تعد،من شاهدها أو يعرف شيئاً عنها الرجاء الاتصال بالرقم ...) .

ذات يوم سنقرأ الاعلان التالي : « وطن ضائع . خرج في ٥ حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ولم يعد . الاوصاف : بدأنا ننساها .. الرجاء ممن يعرف شيئاً عنه عدم الاتصال بأحد لاننا قررنا نسيان القضية » ..

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحارب » . آه لا «استراحة لمحارب» في أرضنا .

• • •

رجل قتل زوجته .

ساقوه إلى السجن ، واعترف بجريمته ولما سأله القاضي : لماذا قتلتها ؟ أجاب ببساطة : لقد سئمت عشها .

والجدير بالذكر ان الرجل القاتل في التسعين من عمره وزوجته المغدورة في

السابعة والثمانين ! ...

أعجبت بهذا الرجل القاتل . صحيح ان الجريمة تسرّبت إلى نفسه ، ولكن من الواضح انه وهو في التسعين ما يزال قادراً على الغضب والرفض إلى حد القتل ... وأن اليأس لم يتسرب إلى نفسه ، وانه ما يزال يحس بان هنالك ما يستحق ان يقتل من اجله!

ما أكثر الذين يموتون وهم في الثلاثين من عمرهم ..

وما اتعس الشعوب التي مات فيها الأمل والرغبة في التغيير والقدرة على التبديل والشهية إلى الحياة حتى القتل ! ..

١٧ / ٩ / ١٩٧٣

لا لإبرة المورفين !

إليكم هذا النموذج اللبناني عن الوجع العربي .

في لبنان عدد كبير من سائقي سيارات (السرفيس) الذين يتقاضون تعريفة قدرها ٢٥ قرشاً لبنانياً عن نقل كل راكب . في الاسابيع الاخيرة بادر بعضهم إلى رفـــع التعريفة إلى ٥٠ قرشاً .

وبادرت السلطات « الساهرة » على حماية المواطنين من الغلاء إلى الضرب بشدة ، وسيّرت دوريات نظّمت محاضر بعشرة مخالفين ، وهي تعرّض مرتكبيها لغرامات تراوح بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ ليرة وللسجن من ١٥ يوماً إلى شهر . وتتضاعف العقوبة عند التكرار ، ومن المفروض أن نصفق ونهتف عاش العدل ! ..

ولكن لا ...

أعتقد أنه قرار خاطىء . أعتقد أن العكس كان صحيحاً ، أي أن المنطق السليم يقتضي معاقبة السائق الذي لا يرفع التعريفة لا الذي رفعها ... أقول ذلك بملء صوتي لا التصاقاً مني بقاعدة « خالف تعرف » ولكن للاسباب التالية : من المعروف ان موجة من وباء الغلاء انتشرت في لبنان كما في العالم أجمع . الأسعار كلها ارتفعت : البنزين والخبز والسكر والارز وأقساط المدارس والملابس والأدوية وكل الحاجات الضرورية . وكان من نتائج الغلاء طبعاً زيادة بؤس الأكثرية الفقيرة (إن لم أقل زيادة ثراء المحتكرين والمتواطئين معهم من المسؤولين) ...

وسائق التاكسي (السرفيس) — الذي من البديهي انه لا ينتمي إلى طبقة اللامبالين بالغلاء — هو إذن في حاجة إلى مزيد من الدخل ليقوى على مواجهة الحياة المعاصرة الصعبة القاسية ، ويتمكن من إعالة أسرته وأطفاله الذين هم طبعاً في حاجة إلى الغذاء والدواء واقساط المدارس ، وكلها ارتفعت أسعارها ...

وبالتالي ، فالسائق الذي يستطيع مواجهة الغلاء دون ان يرفع تعريفته هو صاحب

دخل غير مشروع (ناتج عن السرقة ، المخدرات ، الخوّة ... إلى آخره) يمكّنُهُ من مواجهة متطلبات الحياة المستحيلة والغلاء الفاحش ...

السائق الشريف مضطر إلى رفع أسعاره وإلا فكيف تريدون منه أن يعيش ؟ انكم تدفعون به دفعاً إلى السرقة وإلى البحث عن الرزق خارج القانون الذي لم ينصفه . وإني لأعجب إذا لم يفعل .

أقول لكم : عاقبوا السائق الذي لم يرفع التعرفة لا الذي رفعها ، فهو إما سارق صغير ؛ وهذا ضد القانون الذي يتولى أمر أمثاله عاجزاً عن مطاردة السارقين الكبار ، أو أنه من طليعة الثورة التي ستنفجر لا مفر ذات يوم من أجل اللقمة والعدالة الاجتماعية ، (والثورة أمر تعاقب عليه القوانين الحالية بشدة أكثر !) ..

إن مطاردة السائقين لا تحل مشكلة الغلاء وانما تجسِّد بعض أسبابها الحقيقية ...

تجسد ذلك المرض اللبناني العربي الذي يعاني منه الشعب العربي في أكثر أقطاره ، ويتمثل في ما يلي :

١ — الهرب من مواجهة المشكلة ككل إلى معالجة بعض ظواهرها الجانبية .

٢ — استخدام أسلوب ابر المورفين في تسكين بعض أعراض الداء القاتل .

٣ — اعتماد أسلوب « أسدٌ عَليَّ وفي الحروب نعامة » ، فتُثبت الدولة هيبتها باستمرار بالتسلط على الطبقات الكادحة الفقيرة واستعمالها كبش فداء تتلهّى بذبحه ، هرباً من مواجهة السارقين الكبار أصحاب الفضائح الكبيرة التي تنفجر من آن إلى آخر ويكون أول المسارعين إلى التستّر عليها هم أصحاب الشأن من « الكبار » .

أقول لكم : لا تعاقبوا أولئك السائقين العشرة الذين رفعوا تعريفتهم ، وانما أقيموا نصباً لهم وأسموه النزاهة وانعموا عليهم بالأوسمة والنياشين كي يحمل الوسام مرة من يستحقه حقاً .

* * *

ترى أيهما أكثر تعبيراً عن واقعنا العربي ، مهرجان الأزهار في بكفيا الذي قطع الطرقات بعربات الزهور ، أم « مهرجان » القرى العطشى في منطقة كسروان التي قطع أهلها الطرقات بالدواليب المحروقة وجذوع الاشجار احتجاجاً على العطش ؟

١٤ / ١٠ / ١٩٧٤

هل اسمك اليوم في عمود الوفيات ؟!

تستيقظ كل صباح ، وتبحث في جريدتك عن أسمك في عمود الوفيـــات ، وتفرح حين لا تجده ... ثم تفتش عن اسمك أو صورتك في صفحة الجرائم وحوادث السيارات ، وتتنهد براحة لأنه ليس هناك أيضاً ... وتقول : إذن نجوت البارحة !...

إذا كنت من سكان بيروت ، ستفعل ذلك مثلي وتصلّي كل صباح شكراً للصدفة لأنها منحتك يوماً اضافياً تعيشه ... ولأنك ما زلت تحيا رغم انك تقطن في بيروت ١٩٧٤ .. تصلي شكراً لأنه لم تقتلك رصاصة طائشة . لم تدهسك سيارة . لم تمت عطشاً .. لم يختطفك أحد . لم يذبحك أحد . لم يسقط عليك بناء مغشوش . لم يصعقك سلك كهربائي مقطوع مهمل . لم تُقتل خطأ حين نشب قتال بين المافيا المحلية في المطعم وأنت تتناول عشاءك .. لم تتسمم بالخبز المعجون بالصراصير . لم تحرقك نيران القصف الاسرائيلي اليومي على الجنوب . لم تلتهمك كلاب حواجز الشرطة أثناء التفتيش . لم تصب بانهيار عصبي لأنك قرأت عبث رجال السياسة المهترئين وتظارفهم السمج وتصريحاتهم ... ولم تُسرق سيارتك وأنت بداخلها... ولم .. ولم .. ولم يصبك شيء بعد مما يصيب عشرات المواطنين المعذبين في بيروت .. ولم تنتحر بعد ! ..

وستصلي مثلي شكراً للمصادفة ، لأنها منحتك يوماً إضافياً جديداً تتعذب فيه ! ..

* * *

قرأت اليوم خبراً عجيباً عن ناطور بناية وجد ميتاً وأثبت الطبيب الشرعي انه مات بالسكتة القلبية ...

ودهشت .. أما زال في بيروت من يموت ميتة طبيعية ؟ ...

* * *

وحين تحس أنك تعوم فوق بحر من القرف ، والمدينة تربض فوق صدرك بكل بشاعتها ومهازلها ، كجسد كففت عن حبه ، تحس بالحاجة الى الهرب .. الى أين ؟

ماذا غير البحر ، البحر العتيق الشاسع ، البحر – الأب ، بحر البراءة والدهشة ، بحر الشمس والنقاء المنسي ... بحر الأسرار والكنوز والقارات المدفونة والأساطير ؟ .. وتذهب في قارب مع بعض أصدقائك ...

* * *

توقف بنا القارب فجأة في عرض البحر ... وداخل مروحة المحرك ، كانت القاذورات متشبثة به تعيق دورانه ... قاذورات من كل صنف يخطر بالبال أو لا يخطر .. مجموعة (عالمية) من القاذورات لا ريب في أن سفن المرفأ قد جادت بها على شواطئنا ، فبينهـــا معلبات لا تباع في أسواقنا ... هذا بالإضافة الى قاذوراتنا المحلية التي نهديها للبحر مع كل فجر ... كان المركب يشق دربه عبثاً في مستنقع من البقايا المقرفة والشمس عبثاً تشق دربها الى قلوبنا ، وتعلقت نظراتي ببقايا امعاء خروف عائمة .. (أم تراها امعاء إنسان قرأت اسمه هذا الصباح في خانة المفقودين ؟) ..

ولكن ، لماذا تدهشني قذارة الشاطىء ؟ أليس امتداداً للساحل ، وها هو يحمل على صفحته الشفافة صورة عن حياتنا في الداخل ، وها هي الصورة تنتشر بين الأمواج بكل عريها وقذارتها كأنها سطور ليوميات إهمالنا ؟ .. وعبثاً حاولنا اختراق سور قاذورات بيروت لنصل الى عرض البحر . تعطلت المروحة ثلاث مرات ، وتعبنا ..

* * *

قال صديقي : أغطسي تحت الماء ...

وهربت الى الأعماق وفوق ظهري مؤونتي من الأوكسيجين ... كان القاع ساكناً إلا من ضجيج تنفسي والفقاعات الراكضة الى الأعلى .. وسمكة تتأملني بدهشة بعينيها الكبيرتين ... تتأملني بما يشبه الهزء والغضب ولعلها تتساءل : ما هذا الحيوان البحري العجيب . ما أبشعه . وما أسخف تنفسه ! .. ما الذي قذف به الى هنا ؟ وتمنيت أن أروي للأسماك ما يدور وأطلب اللجوء الى عالمها ... لكنني شعرت بعيونها تطردني من القاع ... ولن تقنعها نظرية « جول فيرن » عن البحر ، وأن عودة الإنسان الى البحر هي أمله الوحيد في النجاة ... لا مكان لنا هنا . لا مفر من مواجهة المستنقع كل صباح ، كل صباح ! ..

* * *

ولا مفر من الغضب حين نقرأ ذلك الخبر المتكرر عن شاب نجا من القصف الاسرائيلي ولكنه كاد يقضي نحبه نتيجة الاهمال اللبناني الطبي ...

شاب تتمزق امعاؤه ... يحملونه الى المستشفيات الرسمية ليعامله الأطباء بغطرسة ولامبالاة قد تودیان بحیاته ؛ ثم تصدر إدارة المستشفى أو الطبيب المختص تكذيباً للمريض إذا شكا ، ويتم اعتماد التكذيب لأن صاحب الشكوى فقير وبالتالي مهمل وليس هنالك من يدافع عن حقوقه .. عن أبسط حقوقه التي تقرها جمعيات الرفق بالحيوان : حق الحياة ...

أنها ليست حادثة إفرادية ... انها ظاهرة عامة ... ظاهرة استخفاف أكثر الأطباء بحياة الفقراء وعامة الشعب ... إنهم لا يتذكرون قسم ابقراط إلا أمام دفاتر الشيكات...

المطلوب إعدام كل طبيب يترك إنساناً يحتضر أمامه ولا يعالجه لمجرد أن جيوبه فارغة إلا من القهر والدم !

٢٣ / ٥ / ١٩٦٦

في العنف الدموي نغرق !

عنف وجريمة .

دم دم دم يسيح حولنا ...

دم يسيح على صفحات صحفنا ، دم يسيل من أحاديثنا المتبادلة ، دم في الأزقة المعتمة ، دم . خنجر مسموم يحس كل منا أنه يتربص في الظلام لرقبته ...

يوماً بعد يوم

لم نعد نقرأ إلا عن حوادث العنف .. قتل ، اختطاف ، سرقة ، دم ، دم ...

لو تجاوزنا التفاصيل ، الأسماء ، الظروف ، لوجدنا دلالة ما يدور خطيرة .. الجريمة هي أن يعتقد الإنسان أن رصاصة ما هي الحل الأمثل لأية مشكلة . إنها سقوط إنساني : والعنف الدموي ، الذي بدأنا نجد أنفسنا غارقين فيه ، معناه أن جيلنا بدأ يتعلم استعمال يديه أكثر من استعمال رأسه ...

إنها عودة الى العصر الحجري في الأرض التي لما أنبتت الأديان والفلسفات حررت الانسان من منطق العضلات الحيواني وكرمته برفعه الى عالم الفكـــر السامي ..

لماذا ؟ .. لماذا هذا العنف الجنسي والسياسي والاجتماعي ! لماذا بدأ جيلنا يستعمل يديه حيث يجب أن يستعمل رأسه ! .

لأننا أغرقناه في العنف .. في الدم .. وفي الجهل والسطحية ؟

الدم يسيح من برامج تلفزيوناتنا (وقد تنبّه المسؤولون الى ذلك ربما بعد فوات الأوان) ... عنف ودم .

لأن « جيمس بوند » صار مثلنا الأعلى وهو استيراد تافه في عالمنا العربي ...

في عالمهم الغربي حيث الإنسان مجرد رقم مجهول تافه ، جيمس بوند تجسيد لفكرة « السوبرمان » ...

أما في عالمنا العربي ، فجيمس بوند رمز لايجاد حلول تتجاوز الحلول المشروعة الجماعية الإنسانية ..

لو عدنا الى حقيقتنا ، لاكتشفنا أن عالمنا العربي بتقديسه للقيم ، قد تجاوز عصر جيمس بوند بمراحل ومنذ زمن طويل.. ربما كان السندباد «جيمس بوند» العرب.. لكنه كان – إنسانياً – على مستوى أرفع ، فقد كان له في طموحه الصادق للمعرفة ، لا في اسلحته الآلية البهلوانية ، سر قوته وعظمته ..

أن نستورد الطائرات منهم ، والصواريخ ، أمر لم يعد هنالك مفر منه ..

أما أن نستورد منهم حصيلة جوعهم المريض الى التفرد ، فأمر تجاوزناه منذ عصور ..

لماذا ، لماذا في غمرة ركضنا الأعمى وراء كل غربي مستورد. نستورد أمراضهم ونستورد لقاحاتهم لأمراض لم نصب بها قبل أن يقوموا بتسميم جسدنا السليم بجراثيمها ؟

في التلفزيون ، في برامج إذاعاتنا ومسرحياتها البوليسية (المثيرة) ، في الأفلام ، في أسطوانات النحيب والأنين ، في الروايات (الميلودرامية) بذور لعقلية لا تلائم المزاج العربي الذي كان شهماً والأخلاق العربية التي لم نعد نجد أمثلة لها إلا في الكتب الصفراء ..

العربي لم يكن قط مجرماً ...

العربي كان شهماً حتى في جرائمه وسقطاته ..

كان في أشعاره يناجي حتى ذئاب الصحاري التي ربما – قبل ليلة – التهمت أطفاله ..

العربي كان دوماً حار العاطفة ، لكنه لم يكن مجرم العاطفة مسعورها ..

اليوم ، جيلنا هجين . فتح عينيه على تفاهات الحضارة الغربية لما عجز عن مجاراة انتصاراتها ...

شيء واحد كان يمكن لعالمنا العربي ، المقصر علمياً . أن يمنحه للغرب الجائع روحانياً ..

شيء واحد اسمه : القيم ...

وها نحن اليوم نتخلى عن الشيء الوحيد الذي تبقى لنا .

وها هو جيل الإنسان الآلي (الروبوتز) يتسلل الى ذلك الرأس الذي كان مدينة منطق ونقاش وتسامح ، ليحيله الى قرية من قرى الغرب النائية في احد أفـــلام

الكاوبوي ...

عشرات الأحداث في شهر واحد .. دم .. دم .. دم ...

ومع ذلك ما تزال التلفزيونات تعرض تفاهاتها ببلاهة .. وما تزال أفلام العنف والقتل تجد طريقها الى شاشاتنا واستديوهاتنا ...

وما زلنا نربي في أطفالنا وشبابنا أجسادهم ، ونمعن يوماً بعد يوم في تشويه بقايا رواسب الأخلاق العربية النبيلة في رؤوسهم ...

نسخّر وسائل دعاياتنا كلها لنعلم سيقانهم كيف تتلوى في حلبات الرقص ، وكيف تتسلل الى دهاليز الجريمة . أما رؤوسهم ، فلم تعد العاقلة المدبرة ، وإنما استحالت الى مجرد أدوات مدبرة متضامنة مع حيوانية الأصابع التي تفرض منطق الرصاص ...

شيء مفجع حقاً ، أن أجسادنا صارت تحمل رؤوسنا في مأتم رؤوسنا ...

شيء مفجع حقاً أن كانت لخيام أجدادنا جذور أعمق انغراساً في أرض الطمأنينة من ناطحات سحابنا التي تعوم على الرمال ...

شيء مفجع حقاً ، أن أطفالنا سوف يشهدون الليلة ، وكل ليلة ، على الشاشات وعلى الصفحات ، رجالاً يموتون كالذباب ...

ترى ، كم طفلاً من بينهم سيكون قاتلاً بعد أعوام ؟ ! ...

١٣ / ٦ / ١٩٦٦

الأطفال ، والقتل !

روت لي المعلمة ، وفي عينيها ذعر قلق ..

قالت ،

(طفل) صغير ، تشاجر مع (طفل) آخر في المدرسة ، فشهر عليه سكيناً كان قد سرقها من المطبخ ... ورد عليه الآخر بالمثل ! ...

قالت ،

إنها بحكم انتمائها الى (الجيل القديم) الذي ما يزال يقرن الطفولة بالبراءة ، كادت تصاب بالاغماء .. وعجزت عن مشاركة بقية أطفال الصف حماسهم أو لامبالاتهم بما يدور ...

قالت ،

الأطفال لم يعودوا أطفالاً ... لم يعد في عيونهم ذلك البريق المشبوب بالعاطفة ، ولم يعد في حركاتهم وفي لهوهم ذلك الخبث الساذج الطيب ، والمكر المحبب النقي ...

قالت ،

أطفالنا فقدوا الطفولة ، ولم يبق لهم منها سوى احجامهم الصغيرة ...

لقد تحولوا الى مجموعة من الأقزام العصريين ، تسود تصرفاتهم ، الآلية ، والقسوة ، والأنانية المستهترة ... إنهم فقدوا كل تحسس مورث بالقيم الخلقية الجمالية ... إنهم يشبون على ذلك ، يكبرون يوماً بعد يوم ، بينما يصغر الإنسان في أعماقهم حتى يكاد يضمحل ...

قالت ،

إن متعة تدريس الأطفال انتهت .

صارت اليوم تشعر أنها موظفة في بنك تتعامل مع الأرقام . تتحاور مع الآلات الحاسبة .

انها ترى فيهم رموزاً مرعبة لجيل هجين ، سيشب بعد أعوام قليلة ليحمل تراثاً لا يفهمه ولا يقدره ، وليمارس حياة تنحرف نهائياً باصالة الفرد العربي القديمة التي أهلّته ذات يوم لسيادة العالم ..

أتساءل ،

في موجة التطور السريع التي تخوضها بلادنا العربية لمواجهة المدنية الآلية العصرية ، وما ينتج عن هذه الموجة من مضاعفات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، ماذا أعددنا للطفل سوى إهماله ؟ ...

ماذا أعددنا ليرث الجيل الطالع شخصية الفرد العربي وما كانت تنطوي عليه من أخلاقية مكثفة معينة تميزها عن الفرد الغربي الممزق ؟ ..

ماذا اعددنا ليكون التطور إغناءً لشخصيته ، لا إفقاراً لهيكلها الأساسي ؟

هل يكفي أن نحشو البرامج المدرسية بالمعلومات التاريخية والجغرافية ، ونقسرها داخل رأسه على أمل أن يجعل ذلك منه استمراراً لروحانية الشرق العتيقة المقدسة ؟ ..

طفلنا ، ماذا نعلمه في شاشة الشارع والدار والتلفزيون والصحف ؟ ماذا سوى حصيلة مئات من أعوام التخلف والصدأ والاهتراء العاطفي والفكري ؟ ...

عالمنا الاجتماعي المتميع القيم،المهزوز الاسس ، ماذا يملك لأولئك الأطفال سوى جو من الفوضى والغوغائية والصراع والقلق وسوء الفهم وسوء التفاهم ؟ ... وإذا استوردنا له من الخارج ، فإن جهلنا بلب الحضارة الغربية يتحكم في أختيارنا ، ونعود اليه بهدايا (السوبرمان) وأفكار (بيتلزية جيمسبوندية) العنف .

وهكذا يشهد الطفل (أمل المستقبل) اطلالته الأولى على وطنه في هذا الجو المفتعل المريض الغائم ، وهكذا يتم تهجينه واغتيال بذور الأخلاقية العربية التي يفترض أن نعنى بتنميتها في دمه وفكره ...

قالت ،

طفلنا صار مادياً قاسياً ، ملكاته الجمالية مشلولة ...

أتساءل ،

ما دام من يزرع الريح يحصد العاصفة ، ماذا زرعنا في رؤوسهم الصغيرة ؟ ... ولماذا يدهشنا أن ينبت في أحشاء وطننا جيل من حاملي الأمواس والسكاكين ؟ ! ...

٥ / ٩ / ١٩٦٦

الزلزال قادم إلينا !

موجة الأضرابات التي بدأت منذ أكثر من شهر في لبنان ما تزال تروح وتجيء. اليوم، الاثنين، هو الموعد الذي حددته النقابات لمتابعة اضرابها، إلا إذا ...

أهل الاقتصاد والصحافة والسياسة لم يُفتْهم المدلول الخطير لهذه الموجة التي ما هي إلا امتداد للاضطرابات التي تعاني منها أكثر البلاد العربية في بحثها عن استقرار نهائي ونظام يحقق أهدافها وينسجم مع مقوماتها التاريخية والنفسية ...

وهكذا عالجوا الاضرابات بـ (الاسعافات الأولية) من مخدرات ومهدئات وأدوية (موضعية) لا تحسم الداء نهائياً وإنما تحد من انتشاره مؤقتاً ..

وتطوع أطباء الاشتراكية والرأسمالية، فوصفوا لجسم لبنان أدويتهم وعلاجاتهم المقترحة، كما يحدث في أي بلد عربي آخر ...

وغرقنا في دوامة من العبارات المهمة : الأجور، الضرائب، الغلاء، السياحة، الضمان ...

وكانت آثار هذه الدوامة واضحة على صفحات الصحف ... ورغم ذلك ... رغم زحام هذه الكلمات (المهمة) المتعاركة فوق عيني مع هدير صرخات الآلاف من « محمد جورج » (المواطن اللبناني المسلم والمسيحي ولنرمز له باسم محمد جورج)، هذه الصرخات رغم عمقها وأهميتها، فإن حكاية في أحد تحقيقات الصحف نفسها حملت إلي ما هو أخطر من هذا كله، وأكثر أهمية ...

الحكاية : أن مظاهرة قامت في السويد، وبما أن الناس هناك يمشون في المظاهرات على رؤوس أصابعهم، فقد كان حادث إحراق علم، عملاً يستحق تدخل الشرطة ... وكانت صورة شرطي أمسك بمواطن من أذنه وفركها، عملاً يستحق ثورة الصحافة والرأي العام على امتهان كرامة الإنسان ...

كرامة الإنسان ... هي بالضبط العبارة الأساسية التي يجب أن ينطلق منها أي

حل وكل حل وفي مجالات حياتنا جميعاً ... في اضراباتنا الفردية السرية والعلنية الجماعية ... وفي علاقة الدولة مع الفرد والفرد مع ذاته وفي عطاء الدولة للأفراد .

أي حل لا يضمن لـ « محمد جورج » ضمان الكرامة قبل (ضمان الخبز) هو أيضاً من نوع (الاسعافات الأولية) ... وأي حل لا ينطلق من حق « محمد جورج » بالحياة الكريمة وبالتالي بتحسين وضعه المادي هو حل مفتعل وناقص .

أرضنا العربية هي منبت الديانات لأن الديانات بدأت دوماً ثورات للكرامة الإنسانية المهدورة ... ثورات من أجل الكرامة أولاً ، ومن أجل الخبز مع الكرامة ثانياً ... وكل ما في تاريخنا وجيولوجيتنا النفسية يقودنا الى هذه النبوءة : (أي وضع اجتماعي أو اقتصادي يخلو من هذا الشرط الأساسي هو عرضة للزلزال والتدمير)...

وعلى ذكر الزلزال ...

فقد وقف نائب تركي قبل أشهر ثلاثة من الزلزال الأخير هناك ، وتنبأ بوقوع الزلزال لأسباب جيولوجية ، وطالب بنقل أهل مدينة « فارنو » وإخلائها ... ولم ينصت اليه أحد ...

وبعد أن وقع الزلزال ، وتم مصرع ٣٠٠٠ شخص ، أطلقوا على النائب لقب « المنجّم » ... أخشى ، لا أريد أن أمنح اللقب نفسه وليمنحونا كرامتنا ، فالكرامة قمح العربي .

١٦ / ٢ / ١٩٧٣

صاحب أجمل بصمة إصبع !

موظف الجمارك في لندن ، سأل أوسكار وايلد العائد إلى وطنه : هل لديك ممنوعـــات ؟

رد الكاتب الساخر : نعم ، ذكائي .

واليوم كانت الشرطة تطارد في شوارع بيروت كل من يحمل كتاباً (*) كأن الكتاب هو دمغة الاجرام العصرية التي كانت توشم بالحديد المحمى فوق أجساد المجرمين والزانيات والقراصنة في العصور الوسطى .

نعم ! أحد زملاء دراستي في لندن كان يزور لبنان سائحاً بعد أن كذبت عليه طيلة أعوام عن بيروت مدينة (الاشعاع والحرية) . تصادف أن ذهب المسكين الى مكتبة في شارع الحمراء ليشتري كتاباً بوليسياً يتسلى به قبل النوم ، ولم يكد يغادر المكتبة والكتاب في يده حتى فوجىء برجال البوليس يهاجمونه ويطاردونه ... ولو لم يكن بطل جامعة لندن السابق في الركض لكان اليوم نزيل أحد المستشفيات !

إن عداء النظام ، أي نظام ، للكتاب هو أمر خطر على النظام أولاً .

لقد أثبت التاريخ أن الثورات التي يقوم بها حملة الخناجر هي التي يفجرها أولاً حملة الأقـــلام ... فالقلم يستحيل خنجراً حين يُقمع . والكتاب يصير قنبلة يدوية .

الثورة الروسية صنعها أولاً غوغول وديستويفسكي وتورجنيف وتولستوي وماركس . كل ثورات الشعوب صنعها الفكر المكبوت ، وفجرتها أنظمة خنقت الفكر بدلاً من أن تستلهمه ... واضطهدت حملة القلم وحاولت إطفاء نيرانهم بدلاً من أن تستضيء بعطائهم ... فالمفكر بوصلة الحاكم النزيه . والكتاب سلاح الحاكم الواعي ، لا

(*) حدث ذلك إثر تظاهرة الطلاب !

الهراوة ... فالهراوة سلاح رجل الغاب . ولم يعد ممكناً لحاكم في القرن العشرين أن يعود بنا الى العصر الحجري ...

هذه كلها بديهيات .

أي تلميذ في المدرسة الابتدائية يستطيع أن يروي عشرات الأمثلة التاريخية عن هزيمة كل حاكم يُرغم شعبه ومفكريه على ارتداء « حزام العفة الفكري » ... وصاعقة الفكر تحرق سيف الحاكم الخشبي .

أجل . هذه كلها بديهيات ، كان يحفظها عن ظهر قلب كل أطفال بلادنا ، ولكنهم للأسف ، ينسونها حينما يكبرون ويصيرون حكاماً ... وقديماً قيل : افتح مدرسة تغلق سجناً . ولكن يبدو أن أكثر حكامنا العرب قرروا إغلاق كل مدارسنا كي يستحيل عالمنا العربي الى سجن واحد كبير ... وإذا ظلت الأمور على ما هي ، سيأتي يوم تُفتّش فيه البيوت ويقتاد الى السجن كل من يملك مكتبة بتهمة حيازة أسلحة ممنوعة .. وستجري امتحانات الذكاء (I. Q.) ، وكل من يفوق ذكاؤه المتوسط ، يتُهم بالشروع في التواطؤ ضد الحكم ...

أما من يُضبط متلبساً بالتفكير ، فيساق الى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وستمنح الجوائز الثقافية للأميين ، وسيحرق الكتاب في الساحات العامة كالمخدرات ... وسيمنع الناس من « التوقيع» على الشيكات وغيرها ويستعاض عن ذلك « بالبصمات » لأن « التوقيع » قد يثير لدى الناس « النوستالجيا الثقافية » ويذكرهم باستعمالات الأبجدية الأخرى .. وسيُرشح العرب لجائزة « نوبل » صاحب « أجمل بصمة » ! ..

١٣ / ٤ / ١٩٧٣

صرخة تحذير في وطن التخدير !

تعبنا من هذه الصورة التي تطالعنا كل أسبوع تقريباً ...

صورة طلاب يركضون في تظاهرة ، ورجال الشرطة ينهالون عليهم بأعقاب البنادق ... يشدون شعورهم ويحشرونهم في سيارات الاعتقال كالخراف المساقة الى الذبح المعنوي .

كلما شاهدتها ، تمطر الدموع في حلقي بصمت غاضب مشمئز .

لماذا تثور السلطات هكذا أمام تظاهرات الطلاب أياً كانت أسبابها ؟

ولماذا تتصرف كأنها تخاف من أن يوقظ الطلاب عقدة الذنب لديها ، أو يوقظوا الشعب النائم (أو المتناوم على مضض) من حولها ؟ ..

أليست تظاهرات الطلاب هي وحدها دليل عافية الجيل الطالع ؟ ...

وحين تمضي بنا الأحداث في مستنقع راكد من الفضائح والسمسرات والإهمال لحاجات الشعب الأساسية والمتطلبات القومية للأمة والتطلعات المصيرية للمثقفين ، أية كارثة قومية تحيق بنا إذا لم يتظاهر أحد ، ولم يرف جفن ، ولم تزكم الفضائح أنف . ولم تصرخ حنجرة فتية : لا ! ..

ومع ذلك ، وبدلاً من أن توزع الحكومة الأوسمة على المتظاهرين لأنهم وحدهم بصيص الأمل في ليلنا الطويل ، نجدها تتفنن في قمعهم .

أعرف أن ذلك لا يحدث في بلادنا فقط ،وانه لا يقع في عصرنا فقط . كما أعرف أن الشبان كانوا دوماً صرخة التحذير فيوطن التخدير وذلك بحكم كونهم ممثلين لإرادة التبديل والتغيير ... وانهم جوبهوا دوماً بحكام يتفننون في اختراع أسلحة مكافحتهم .. وحتى المفكرون العباقرة أعمتهم الهوة بين الجيلين ووقفوا ضد الجيل الصاعد . اقرأوا معي هذه العبارة التي كتبها أحدهم : « شبان اليوم يعشقون الرفاهية . أخلاقهم فاسدة وسلوكهم سيء . انهم يحتقرون السلطات ، ولا يكنون الاحترام للجيل السابق .

أنهم يعاكسون آباءهم ويرهقون اساتذتهم ... » ..

هذه السطور لم يخطها حاكم لبناني معاصر وإنما كتبت منذ العام ٣٢٩ قبل المسيح ! .. وكاتبها هو سقراط نفسه ! .. وحكاية اضطهاد الشبان اليوم ما تزال بعد ٢٠٠٠ سنة صورة معاصرة لما كانت عليه منذ عصور ... وإذا كان سقراط نفسه قد قال في جيل الشبان ما يقال اليوم عن شباننا ، فهل نطمح في تفهم عاجل للشبان ولدورهم الموقظ لحواس الحكم المتبلدة ؟ .. أم علينا أن ننتظر أيضاً ٢٠٠٠ سنة أخرى ؟

٢ / ٣ / ١٩٧٣

إذاعة لبنان مغتربة

لا مفاجأة .

عدوان اسرائيلي .

كان ذلك منذ اسبوع ، وقد يتكرر بعد اسبوع ..

ما الفرق ؟

المهم أنه وقع ويقع وسيقع .

هاجمت طائراتهم الحربية طائرة ركاب مدنية ليبية ، اسقطوها ، وذهب ضحيتها عشرات المواطنين العرب الأبرياء ...

وفي شمال لبنان هاجموا مخيمي البداوي ونهر البارد وخلفوا وراءهم كالعادة جثث الأطفال والرجال والنساء المحروقة ، وأنقاض البيوت الملطخة بالدم ...

لا مفاجأة .

فضيحة التخلي عن الدفاع عن الأرض اللبنانية مستمرة كما لو كانت دعوة لاحتلال جنوب لبنان ... وكما حدث يوم الاعتداء على مطار بيروت في ٢٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، وكما يحدث في كل عدوان اسرائيلي يحدث اليوم ... كالعادة ، لم تقم السلطات اللبنانية بأي عمل دفاعي طوال مدة الاعتداء .

لا مفاجأة .

كالعادة ، مع اليوم التالي طلعت أصوات السياسيين محتجة ، ولكن الذين قتلوا قد قتلوا ، والسيادة اللبنانية انتهكت ، والعار هو العار ، وكلها أيام ، ويعود كل الى مصالحه الخاصة ناسياً الحكاية ...

ولكن ، بعيداً عن الديبلوماسية ، فلنقل بصراحة القلب العاري أن مصرع الضحايا يدمي نفوسنا . والأكثر إيلاماً هو أن إذاعة لبنان من بيروت تابعت بث برامجها كأن شيئاً لم يكن ، في حين أن إذاعة (مونت كارلو) نفسها ، أوقفت

بث برامجها الغنائية والترفيهية ، وأعلنت الحداد على ضحايا العدوان في لبنان ، والحداد على ضحايا الطائرة الليبية ! ! .

أجل !

راديو مونت كارلو يعلن الحداد .

وراديو لبنان يرقص الدبكة ويتغنى بمجد لبنان والتبولة ...

صحيح أن إذاعة لندن استمرت أيام الحرب العالمية في بث برامجها العادية تقريباً — وذلك من أجل رفع الروح المعنوية للشعب — ولكن الأهم من ذلك كله أن جيش انكلترا كان يخوض الحرب فعلاً .. ويدافع عن أراضيها فعلاً ...

أما نحن ، فلا نحارب ، ونتستر أيضاً على فضيحة هزائمنا ، ونتجاهل القتلى الذين يسقطون فوق أراضينا ، والذين يمثلون طليعة النضال العربي وأمل هذه المنطقة المتخلفة في أن تستيقظ من سباتها التاريخي ...

فالشهداء يتساقطون على أرضنا ،

والحداد في مونت كارلو ...

الميت عندنا ،

والتعزية في مونت كارلو ...

واذاعة لبنان مستمرة في رفع الروح المعنوية للشعب ، مستعيضة بذلك عن الحرب !

متى يقطن لبنان في لبنان ؟ ...

ومتى تصير الأراضي اللبنانية جزءاً من لبنان ؟ ..

ومتى تعبر الإذاعة اللبنانية عن البشر الذين من المفروض أنها تنطق باسمهم ؟ ...

١٩٧٣/٣/٣٠

لمسة حنان (*)

لمسة حنان ؟

وكيف أمنح هذا الأسبوع « لمسة حنان » ، و « لمسة البارود » تتهدد وجودنا ؟

بالأمس ، زرعوا الموت في جذور مطبعتنا . أرادوا ذبح حناجرنا ، واغتيال أصواتنا قبلها . كنا نأتي الى مكاتبنا بالمجلة كما نذهب الى الصلاة ، عزلاً وبلا سلاح — إلا سلاح الكلمة — .

واليوم ، حولوا دارنا المسالمة الى ثكنة للدفاع عن الذات ...

لمسة حنان ؟

كيف ؟

ها أنا جالسة الى مكتبي الذي كان من المفروض أن يتطاير بي في الجو مع اشلاء بقية زملائي ..

لمسة حنان ؟

كيف ؟

(ربما في هذه اللحظة تقبع في درجي متفجرة . يخيل إليّ انني أسمع تكات ساعتها الموقوتة . لماذا قدر الكاتب في بلادي أن يسمع باستمرار تكات قنابل التهديد داخل طاولته ؟ ومع ذلك هل نملك إلا أن نستمر ؟) ...

ولكن ، هل يستطيع الارهاب الغاء الأساس الحضاري الأول : الحوار عبر اللغة ؟ ...

وهل صارت لغة البارود هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة بين العرب ؟ .. (واللغة الوحيدة التي لا نستعملها مع اسرائيل!؟) وصار الحوار المهذب حكراً على تعامل البعض مع إسرائيل ! ؟ ...

(*) كان اسم (العمود الأسبوعي) الذي أكتبه للمجلة : (لمسة حنان) .

أياً كان ما قلناه ونقوله في هذه المجلة ــ وقد نكون أحياناً ، أو غالباً، على خطأ ولكن اللغة يرد عليها باللغة ، لأنه لا يقتل الكلمة إلا الكلمة الأصدق ، ولأن الإبادة تستطيع أن تطيح بأجسادنا الممزقة في حقل البرتقال المجاور ، ولكن الكلمة تظل أبداً ...

الذين يواجهون الكلمة بسلاح العنف قد يعرفون « جغرافية » مقرنا ، ولكنهم لا يعرفون « تاريخ العالم » .. التاريخ يؤكد أن الكلمة « كالميدوزا » ، كلما قطعت لها اصبعاً نبت مكانه ألف إصبع ، بأظافر أكثر طولاً وتحدياً .

قبل أن نتحدث نحن العرب عن استراتيجية المعركة والتكنولوجيا والخطة الموحدة للحرب ، علينا أن نوقف حربنا المستمرة ضد كل مؤسسة فكرية حضارية عربية ، وعلينا أن نتفق على بديهية ساذجة لخصها فولتير بقوله : قد أكون ضد رأيك حتى الموت ، ولكنني أدافع عن حقك في أن تقوله حتى الموت .

هذا الصباح قال لي أحد الجنود الموكل اليهم أمر حراسة المكان ، بعد أن أطلع على بطاقتي الصحفية : ماذا في حقيبة يدك ؟

ــ أوراق وأقلام حبر .

قال لي : دعني أر أقلامك . هنالك مسدسات بشكل أقلام حبر .

قلت له : يبدو أن بعض الحكام العرب يعتقدون أن أقلام كل المفكرين العرب من هذا النوع ! ...

١٩٦٨/٧/٥

من أجل حرية الفكر !

لا تدهش إذا ذهبت يوماً ما للاستماع الى محاضرة ، وفوجئت بالمحاضر يدخل إليك وقد ارتدى ثياب الميدان ، نظاراته السميكة تطل من خلف خوذته ، في إحدى يديه نص المحاضرة وفي اليد الأخرى قنبلة يدوية وجيوبه محشوة بالسكاكين والمسدسات ..

ولا تدهش إذا استعاضت الجمعيات الثقافية بالخنادق عن المنابر ...

ولا تدهش إذا وجدت أكياساً من الرمل ، (تمترس) خلفها أثناء المحاضرة بدلاً من المقاعد ...

ولا تدهش إذا ارتدى الصحافي الحر كفنه ذات مساء ، وودع زوجته وأولاده قائلاً أنه ذاهب الى المكتب لكتابة افتتاحيته ! ..

ولا تدهش إذا تناهى إليك خبر تأجيل محاضرة مفكر ما ، لانشغاله في دورة (الجودو) التي يستعد بها لمحاضرته ، وتنفيذاً لتوصيات مؤتمر الأدباء العرب بتدريب المفكرين على السلاح الأبيض والأسود !

ولا تدهش إذا قلت لك إنني لا أمزح ! وانني أعني كل حرف أقوله ! .

هذا هو الحل الوحيد المتبقي للمفكر العربي ، ما دامت بعض السلطات العربية حتى (التقدمية) منها ، تتخلف عن تحقيق أبسط مبادىء (تقدميتها) : مبدأ حماية حرية الفكر ! ! ... فالحادث الذي وقع في قطر عربي شقيق ، ومدلوله الخطير ، وتجسيده لمأساة عربية مشتركة متعددة الوجوه ، هذا الحادث لا يترك للمفكر العربي أي خيار ...

لا أعتقد أن هنالك من لم يسمع بالحادث المفجع الجديد ، الذي خرج منه الفكر العربي كعادته ، لقيطاً مرمياً على أبواب القمع .

الدكتور نديم البيطار ذهب ليحاضر في قطر عربي بدعوة من جمعية العلوم السياسية كما يحدث في بلاد العالم المتمدن ...

وكما لا يحدث في بلاد العالم المتمدن تلقى الدكتور بيطار قبل موعد محاضرته هواتف تهدده بالقتل فيما لو تجرأ على أن يمارس أبسط حقوق الإنسان العربي في ظل أنظمته (التقدمية) التي هلل لمجيئها : حرية الفكر والتعبير ..

رئيس الجمعية المضيفة تصرف كأي مواطن مثقف : لم يفكر باستئجار فرقة من المرتزقة للدفاع عن أمن الحاضرين ، وانما اتصل بالسلطات الرسمية على اعتبار أن الدولة وجدت أصلاً لهذا الغرض ، ولها الحق في منع المحاضرة أو حمايتها ... ولم تمنع المحاضرة .

وفوجىء الجميع يوم المحاضرة بهجوم فئة من الأفراد تمنع المحاضرة بالقوة وتنفذ تهديدها . ! هجموا بالسكاكين والأحجار والخناجر ، متسترين بذلك الشعار النبيل « الله أكبر » .. (أيتها الآلهة ، كم من الجرائم ارتكبت باسمك) ... وهرب المحاضر وجرح الجمهور !

هذا الحادث في نظري فضيحة عربية مثلثة الوجوه ..

١ — فضيحة على الصعيد الاسلامي :

إن مهاجمة جمهور أعزل بالسكاكين والرصاص ليس من روح الإسلام في شيء . والحكم بالاعدام على إنسان من أجل محاضرة لما يقم بالقائها بعد ظلم إنساني .

أنا لم أقرأ شيئاً للدكتور بيطار ، وهو قد يكون ملحداً أو لا يكون ، قد يكون ماركسياً أو نازياً أو لا يكون . في الحالات كلها أدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أدافع عن حق الجميع في الرد ...

ولكنني أرفض العنف الجسدي رداً ، بدلاً من مقارعة الحجة بالحجة ، وأرفض أن يكون ذلك باسم الإسلام . إذ ليس من روح الإسلام المجيد ، العمل في الظلام ، وهو الذي جاء ليُخرج الناس من الظلمات الى النور ... من الظلم والارهاب الى الحرية والكرامة .. والإسلام معجزته الكلمة ، فهو مع الحوار الفكري ...

وبالتالي كان يمكن أن يتمثل الإسلام في المحاضرة ، فيما لو رافقت صيحات « الله أكبر » أدمغة تحمل الحجة لا السكاكين وتناقش الدكتور بيطار حتى مطلع الفجر ، حتى يسقط فكره صريعاً ، وفي اسوأ الاحتمالات يخرج كل فريق حاملاً قناعاته ويكتشف الجمهور ذاته الحقيقية عبر ذلك الحوار الصحي .

اني أصرخ في وادي أئمة المسلمين ومفكريهم في العالم العربي كله ، أناشدهم

رد الأعتبار الى الفكر العربي الإسلامي وتبرئة الإسلام من هذا التنظيم الإرهابي ومن أي تنظيم ارهابي غوغائي في أي قطر عربي يستهدف تدمير حرية الفكر ..

٢ — ما حدث فضيحة على صعيد موقف الرسميين في نظام تقدمي :

قبيل المحاضرة قدّم بعض الذين لا يعرفون عن الإسلام سوى المسابح والعمائم عريضة الى رئيس الحكومة طلبوا فيها منع المحاضرة واحراق كتب نديم البيطار في الساحات العامة ...

إن حريق مكتبة بغداد التي كانت تضم خلاصة الرقي الإسلامي الفكري والعلمي ، على يدي هولاكو كان فاتحة عصور انحطاط العرب وسقوطهم في الذل والمسكنة ... والتاريخ الإنساني في كل مكان من العالم يذكر بهلع وخجل مأساة احراق حضارة إنسانية هي الحضارة العربية الإسلامية .

وحتى تهاون السلطات الرسمية في تأمين الحماية البوليسية للمحاضر المفكر ، يمكن أيضاً أن نبرره على أنه من قبيل عدم التصديق ! عدم تصديق أن أموراً كهذه يمكن أن تحدث في عصرنا ... ويؤكد ذلك عدم منع المحاضرة رسمياً .

ولكن ، لماذا ترحيل المحاضر ؟ ولماذا تعطيل الجريدة التي دافعت عنه وإقالة رئيس تحريرها ؟ لأنه حر وصادق ، هذه محاولة لتدجينه كما يحدث لأي مفكر عربي حر في أي قطر (رجعي) . أن يحدث ذلك بالذات في ظل نظام تقدمي ، يثير مخاوف وحساسيات المثقفين العرب ... وتساؤلاتهم ... ماذا حدث ؟ ...

أن القضية لا تخص شعب هذا القطر الشقيق وحده ، لأن كل مواطن عربي خرج يرقص في الشوارع يوم سقوط الرجعية في ذلك البلد ولأن الثورة العربية في أي قطر تخص كل عربي .. ولأن في انحرافها أو تشوشها ما يمسه مباشرة ، ويهدد بقاءه ...

لماذا لم يُعاقب مثيرو الشغب ؟ من واجب السلطات أن توضح أن الدستور مقدس ، وانتهاك حرمته يعرض الفرد للعقوبة مهما كانت دوافعه وأقنعته .

ما جدوى سقوط الرجعية في أكثر من قطر إذا كان النظام التقدمي الجديد ، تقدمياً بشعاراته لا بأسلوب عمله أياً كانت أعذاره ؟

ما هي القوى الشريرة الخفية التي تدفع ببعض الأنظمة التقدمية الى مهادنة الرجعية الغوغائية ، وحتى مساندتها أحياناً ضد الفكر الحر ؟ ... أليس الفكر الحر هو وحده ، الضمانة الصادقة للثورة ؟ .

إن حكومة هذا القطر مطالبة بإعادة ثقة الفرد العربي بأنظمته التقدمية ، وبجدية شعاراتها على الصعيد الواقعي العملي ضد سماسرة الرجعية المتسترين خلف اقنعة الدين وسواها.

٣ ـ فضيحة على صعيد المثقفين العرب :

لقد وقّعت ٢١ نقابة مهنية وفكرية في ذلك القطر العربي مذكرة تعلن شجبها واستنكارها لأسلوب العنف والاعتداء على حرية المواطنين واجتماعاتهم ، وحريتهم الفكرية . وعريضتهم تتعلق بالمبدأ ... بينهم أكثر من مسلم وليس بينهم قريب للدكتور نديم البيطار (الذي تصادف أنه لبناني) ، إذ ليس للفكر وطن .

اني أصرخ في وادي المثقفين العرب على اختلاف هيئاتهم ومهنهم ، بما فيهم من رجال دين ودنيا ... كل عربي مدعو لتوقيع هذه المذكرة ، التي تطالب بمعاقبة المذنبين وفقاً للقضاء وفي المحاكم المختصة ... وكل عربي مدعو الى دعم الأنظمة التقدمية بشرط أن تمارس تقدميتها ، وتدعم الحرية الفكرية للأطراف كلها ، وتنظم أي حوار في ظل هيبة القانون وسطوته .

عار على المفكر العربي في أي قطر أن يقرأ عن هذا الحادث بينما هو يتناول قهوة الصباح في مقهاه ، ويظل يتثاءب في مقهاه بعد ذلك ، كما لو كان يقرأ عن جريمة نشل في الطرف الثاني من القمر ...

إنها جريمة تخص كل مفكر . . . جريمة نشل الفكر من رؤوس المثقفين العرب .

وعلينا جميعاً أن نثور وعلينا أن نحمي الثورات العربية من مواقفها « اللاثورية » ..

٤ ـ فضيحة على المستوى الأكاديمي اللبناني :

الدكتور نديم البيطار مواطن لبناني ، مثقف الى حد أهله للعمل كأستاذ جامعي في بلاد غربية : كندا ... له موقف فكري ، ومؤلفات (أكرر ، لم أقرأ له) ، لكن مجرد استثارة كتبه لقوى الإرهاب أمر يثبت أنه كمفكر يقف ضدها مباشرة ، أو أن في أفكاره ما يهدد بقاءها ، أو أن أفكاره جديدة فعلاً (أول قائل بكروية الأرض ودورانها في التاريخ كان مصيره كالحلاج : الحرق) .

قد نوافق الدكتور البيطار على مواقفه الفكرية أو لا نوافقه ، ولكننا نظل نكن الأعجاب لموقفه الصلب والواضح الذي كان أبداً يميز رجال الفكر الحقيقيين..

السؤال : لماذا يعيش دماغ كله اشعاع خارج وطنه لبنان بلد الاشعاع ؟ ...

لماذا يدرِّس في جامعات كندا ، بينما يرتع في مناصب التدريس الجامعي في لبنان أكثر من (فيلسوف) مزيّف ، يستر عمالته خلف تقعره الفلسفي ، ويقوم بمهمة تمييع الفكر العربي وتشويشه ؟ ...

لبنان « بلد الاشعاع » ، مطالب أيضاً بالانسجام مع شعاره ، ومطالب بإنصاف أي مفكر ذي موقف واضح وحاسم وحمايته ، بدلاً من حماية المرتزقين والعملاء ، في عصر تدفع فيه الملايين لشراء الأدمغة من كافة أنحاء الأرض .

وبعد .

صرخاتي الأربع أحس أنها في واد .. كآلاف الصرخات الأخرى ... فإلى (الجودو) أيها المثقفون العرب .. فليس لديكم ما تخسرونه سوى أقلام محرَّم عليكم استعمال الحبر فيها ..

١٩ / ٧ / ١٩٦٨

من أنا حتى أكم أفواه الينابيع ، وأخيط شفاه الأطفال !؟

استعيد الآن هذا الجزء المسجّل – في ذاكرتي – من محاضر اجتماع هيئة التحرير .

بعد ساعة من النقاش الحار الأشبه بالبوح ، والذي أثيرت خلاله أوجاع امّتنا العربية كلها من سياسية واجتماعية وحربية ، وامتلأ الجو برائحة البارود ، بحس الخطر ، بحالة الحرب القائمة في كل ميدان وعلى كل صعيد . وامتلأ كل محرر بالرغبة في القيام بشيء ، بالرغبة في أن تكون موضوعاتنا تجاوباً مع تواتر الأحداث وخطورتها وضرورة اتخاذ خطوة ما ..

سألني فجأة رئيس التحرير : وأنت يا غادة ، حول ماذا سيدور موضوع تحقيقك المقبل ؟

– عن قصائد « الموت واللغة » للأب الشاعر يوسف سعيد .

خيل الي أن همهمة خيبة أمل وعتب سرت في الجو .

رئيس تحريرنا تابع : كنت أسألك عن التحقيق ، لا عن نقدك لكتاب .

– سأكتب تحقيقاً انطلاقاً من هذا الكتاب . انه كتاب مهم ، وظاهرة في أدبنا العربي يجب الالتفات اليها .. لا لأن شاعرنا رجل دين ، ولكن لأنني وجدت في الكتاب ما ذكرني بالـ (Metaphisical School) . الحركة الشعرية المهمة جداً في تاريخ الشعر والفكر الغربي ...

وقبل أن يحتجّ أحد ، استرسلت في محاضرة أكاديمية حول تلك المدرسة ، وشعرت بأنني كنت كمن يحاضر عن غاندي والمقاومة السلمية في ملجأ للغارات الجوية ! أو كمن يقرأ فقرات من كتاب « دع القلق وأبدأ حياتك من جديد » لفريق من المجاهدين الذين سيُنفذ بهم حكم الإعدام بعد ساعات ! .. إلا أن حبي للشعر تغلب على كل شيء .. وتابعت : « مدرسة ما وراء الطبيعة » الشعرية تلك هي التي انقذت الشعر الأنكليزي من فترة انحطاط خطيرة ، غرق الشعر خلالها في داء عشق اللفظة

وألاعيبها . حتى خلا من كل مضمون فكري أو رؤيا شعرية .. يومها تحول الشعراء من مبدعين الى راصفي كلمات على رقعة « كانفا » .. ثم جاء « دون » ، و « هيريك » و « هربرت » وأتباعهم ، بعضهم من رجال الدين أو من المنشغلين بالقضايا الروحية . وانقذوا الشعر من هذا المصير المفجع ، إذ أغنوه بمضمون فكري انساني مسيحي الرؤيا للوجود . وشعرنا العربي المعاصر يمر بمرحلة موازية ، ومن الضروري أن لا نهمل الأدب في موجة انغماسنا بالسياسة لأن الأدب يغني الأمة فكرياً ، وهو أمر نحن بأمس الحاجة اليه في هذه الظروف الحرجة .

وقاطعني رئيس تحريرنا في نفاد صبر هادىء : حسناً .. حسناً .. أكتبي ما تشائين ..

(انتهى المحضر) ...

عدت الى كتبي وأوراقي . والى عوالم « دون » و « هيريك » ، والى دنياي العتيقة وحتى الى شوسر وميلتون .. عشت معها ، ومع أكثر من كتاب نقد غربي حولها ...

وعشت مع كتاب الأب الشاعر يوسف سعيد ، مع « اللغة » التي يحارب « الموت » بها ، وأعوان قتل « إنسانية » الإنسان أثناء حياته ..

بل انني نفضت الغبار عن بعض كتبي في الصوفية ، عن « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي — أنيس المقدسي » ، وعن « شخصيات قلقة في الإسلام — عبد الرحمن بدوي » ، و « التصوف الإسلامي — الدكتور البير نصري نادر » ، وبدأت أقرأ ، وخيوط أطروحة أدبية تتجمع في ذهني ...

عشت أياماً أقرأ وأفكر في برج من الرؤى : ترى هل هنالك شبه بين مدرسة ما وراء الطبيعة ، وبين الصوفية ؟ هل هنالك تناقض ؟ المقارنة على أية حال تجعلنا دوماً أقدر على الرؤيا ... وأين تقع قصائد الاب يوسف سعيد من ذلك كله ؟ هو يقول : « هذه المجموعة ، تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت أمام الجدار أم اخترقته ؟ » ..

وأعترف ...

استسلمت لغيبوبتي الفكرية الممتعة .. وبدأت في كتابة دراسة أدبية أكاديمية مفصلة حول معركة الأدب ضد الموت على رقعة شطرنج الحياة وبعساكـــر من حروف ...

لو ...

لو لم أقرأ في صحيفة زميلة مقالاً للاب يوسف سعيد حول ما كتبته عن الدكتور نديم البيطار ... وفي المقال يأخذ عليّ دفاعي الحار عنه وعن حقه في أن (ينطق بكفره) ...

أذهلني ذلك ! ...

الشاعر الذي يريد أن يتحدى الموت باللغة ، ينادي بقتل اللغة ! ..

الشاعر الذي يقول :

« من أنا حتى أكمّ أفواه الينابيع وأكمّ أشداق القطط والذئاب ؟ حتى اخيط شفاه الأطفال في حفلة الشعانين ؟ »

هو نفسه الذي يستنكر في مقاله لماذا « لم يَسْكُتْ نديم البيطار ، ولم يَشدّ خرقة بالية على فمه » ! ! ...

لا .

للشعر أقول لا . للفن أقول لا . للغناء أقول لا . للنقد الأدبي أقول لا .

لا .

لا جدوى من أن يقال أي شيء في مجال الإبداع الأدبي أو حوله قبل أن يتمّ ، ونهائياً ، التفاهم حول قضية حرية الفكر ، وحمايتها نهائياً بتشريعات الدستور والموكلة بتطبيق تشريعات الدستور : السلطات التنفيذية .

لا .

لن أكتب نقداً أدبياً ولا بحثاً أكاديمياً شعرياً ، وإلا كنت كمن يكتب مؤلفاً في فن الطبخ لقبيلة تموت جوعاً ! ..

لا .

قبل أية محاولة تقييم لأي نتاج ، علينا أن ننتزع الأهم : حرية الانتاج ! ! ..

قبل أن نطبّق أساليب الدراسة الحضارية على نتاجنا الفكري ، علينا أن نعامل نتاجنا الفكري باسلوب حضاري ، ونوفر له جواً انسانياً حضارياً لنموه ، وأول شروط هذا المناخ هو الحرية الفكرية .

لذا وداعاً يا رحلتي الصوفية عبر قصائد وقصائد وقصائد ، فقد كنت كمن يريد أن يتجوّل مصلّياً للوجود بقيثارة ، في حقل لم يكن يدري أنه مزروعٌ بالالغام ...

لذا ، (عودة الى عالم الأرقام) سأناقش على التوالي :

١ — رد الأب يوسف سعيد حيث كان فيه — ربما دون أن يقصد — سجّاناً للكلمة .

٢ — قصائده التي احببت ، والتي كان فيها ثائراً من ثوار الكلمة ..

٣ — مدلول ازدواجية الموقف هذه ، — أن يكون ثائر الكلمة سجّانها — ، ومن هو المسؤول الحقيقي عن ذلك ؟..

سوء تفاهم أم رفض للتفاهم ؟

يوم كتبت عن نديم البيطار كتبت مدافعة عن المبدأ . عن مبدأ السماح بحرية التعبير وضمانها لكل فرد وأنا لا أدافع عن مبادئه ، وإنما أدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أدافع عن حق الجميع في الرد .

الأب يوسف سعيد يطالبنا بأمر آخر ، يطالبنا (زميل لي دافع عن البيطار ، وأنا) بأن نطّلع على آراء البيطار ونناقشها ثم نحكم لها أو عليها ... هذه روح مقاله ... انه يأخذ علينا دفاعنا عن « ملحد » ، ونحن لم ندافع عن « ملحد » وإنما دافعنا عن حق مواطن في أن يقول .. لقد وقفنا ضد الالحاد بحرية الفكر في وطننا العربي ، ضد الالحاد بالإنسان . تساءلنا عن ماهية (الحقيقة) وبالتالي مفهوم (الإلحاد) .

والأب الكريم يقول في مقاله « أقول الحق لكم ، اننا يجب ، قبل الكتابة أن نقرأ ونناقش ونحلم ثم نكتب ، وإلا كان العطاء عندنا ناقصاً مشلولاً ، فاتراً ، يحتاج الى ملح يغذي أطعمة الفكر » ... تلك هي النقطة الأولى التي أثارها .

وأنا لا أجد في كلامنا ما يتنافى مع كلامه . نحن دافعنا عن المبدأ، دافعنا عن حرية أن نقرأ ، وأن نناقش وأن نكتب ، لأن هذه الحرية مفقودة ، ودافعنا عن ذلك عبر حادثة واقعية : قصة الدكتور البيطار ...

ولا أجد في رده علينا أي رد ، وانما مجرد تطوير لما طالبنا به ، وتوسّع حول احدى النقاط ، فهو يتحدث عن « الملح » الذي يجب أن يغذي أطعمة الفكر ، ونحن تحدثنا عن الأهم : عن المجاعة الفكرية التي تهددنا حينما نهدد حرية الفكر . نحن تحدثنا عن خبز الحياة الفكرية ، وهو تحدث عن مقدار الملح فيه ، وأنا أوافق على كل ما قاله دون أن أجد فيه حرفاً واحداً يتناقض وما قلته أنا ، أو زميلي . ببساطة ، الأب يوسف سعيد يسألنا : لماذا لم نقرأ ؟

ونرد : اننا ندافع عن حقنا في ان نقرأ ... وكي نقرأ (وتلك رغبتنا ورغبتك) ، ندافع عن حق سوانا في أن يكتب وأن يقول ... ثم كيف نقرأ لنديم البيطار مثلا أو سواه ونناقشه اذا لم يُسمح له بأن يقول ، ولم يسمح بنشر ما يقول ؟ ..

أليس ما ندافع عنه هو الشرط الأساسي لتحقيق مطلب الاب الفاضل ؟

إذن فالقضية حتى هنا لا تتجاوز سوء التفاهم بيننا وبين الاب يوسف سعيد الذي يثيره دفاعنا عن المبدأ.، مبدأ حرية الرأي . وبدا من كلامه انه أكثر اطلاعاً منا على اسرار القضية،وكتابات من يسميه بـ (النديم)، وفي هذه الحالة،لماذا تفرغ للهجوم على مواقفنا الحالية من الاطلاع بدلاً من ان يتابع دراسة ما سهونا عنه ، فيقرأ هو ويجادل ويناقش ؟ اذا كان يجد في (تعليقنا) موقفاً اعتباطياً ، فلماذا اكتفى بكتابة مجرد تعليق على تعليق ؟! ولماذا لم يكن منسجماً مع ذاته ، ومع مطالبته لنا بمناقشة عميقة « بعمق الفضاء والبحار والاغوار »، فسمح لنفسه بأن يقول « المدينة التي طردت النديم برهنت انها تقرأ » دون أن يقول لماذا برهنت ؟ !

وكيف يؤيّد هدر دم نديم البيطار فكرياً ... دون أن يناقش (وينوّرنا) ما دام قد قرأ واطلع (باعترافه) ! ؟ أليست مهزلة ان يمارس في نقده كل خلق أدبي نهى عنه ؟ ... ثم ، عبر أي منطق يتبنى تسمية نديم البيطار ملحداً ؟ ملحد ؟ بماذا ؟ حتى الآن ، وحتى يناقش الاب سعيد ويسد النقص في ما خطه زميلي وأنا ، نظل نقول ان النديم ملحد في نظره ، وفي نظر الفئة التي هاجمته بالسكاكين والرصاص فقط ... (وربما في نظرنا أيضاً لو قرأنا له ، وسنفعل)

هنالك أمر آخر يستحق أيضاً ان يناقش بعمق « الفضاء والبحار والاغوار » وهو : هل لأية سلطة دنيوية أو دينية أو فكرية حق خنق صوت مفكّر ما بتهمة الالحاد لانه لا يتفق معها ، وبحجة ان الأفضلية لها لانها (تمثل الحقيقة) وبالتالي تنطق باسمها ؟ ثم ، ان تمثل ــ سلطات دينية أو دنيوية ــ الحقيقة في مختلف اصقاع الارض وعلى مر التاريخ أو ترمز لها ، هل يعني ذلك أنها (تكوّنها وتصيّرها) ؟

بمزيد من الوضوح ، واحتراماً مني للحساسيات الدينية ، أترك الكلام للكاردينال فرانز كوينغ الذي قال في ليندا و بالمانيا الغربية :

« ان الكنيسة الكاثوليكية تعيد النظر الآن في حكمها على العالم الايطالي غاليليو الذي عاش في القرن السابع عشر » .

وقال انه « قد تقام لجنة خاصة لاعادة محاكمة غاليليو الذي عاش بين سنة ١٥٦٤

وسنة ١٦٤٢ والذي ادانته الكنيسة بتهمة الهرطقة لانه أكّد ان الشمس، لا الارض، هي مركز الكون . وأجبر غاليليو على انكار ذلك علناً تحت التهديد بالحرمان الكنسي».

وقال « ان البابا أبلغ عن جميع الخطوات التي تتخذ . »

طبعاً ، ليس المقصود بهذا الموقف ابلاغ شهادة البراءة إلى حارس مقبرة غاليليو . أو شبحه ، أو الصاق التبليغ على رخام مقبرته .. المقصود هو تبرئة فكر من تهمة اضطهاد فكر آخر لمجرد انه لا يتفق معه بالرأي ، وفي ذلك تأكيد ديني رسمي لحقيقة فلسفية فكرية ، هي الحقيقة الوحيدة الاكيدة : « اضطهاد الفكر تحت أي شعار هو العدو الاول للحقيقة » ...

وبالتالي ، فان المفكر الحقيقي من ديني ودنيوي يستنكر احتكار حق حرية الرأي لفئة دون اخرى ، مهما كان تبرير ذلك ، وتحت أي شعار .

تستطيع اختراق الجدار ، ولكن ...

والآن ، إلى القصائد التي أحببت ... أراها بالحب نفسه : لانني لا أعـرف « الغضب الاسود » ، ولأن غضبي لحرية الكلمة هو من بعض حبي للكلمة ، وحرصي على ان لا تُجهض . واذا كنت آسفة لشيء ، فلأننا نصطدم دوماً بالحاجة إلى الدفاع عن البديهيات الانسانية (الحرية الفكرية) وإبطال الالغام المزروعة في أرضها ، بحسن نية أو بسوء نية ، بدلاً من تفرغنا للانصات إلى فنان « يجلبب بالقصائد والاغاني رأس غليونه » ...

اصطدم الشاعر الأب بالموت عبر موت جزء منه في موت صديق له غال ، هو المرحوم رئيف خوري، جعله يعيش « في جوف دوّامة اربعين يوماً ، واربعين ليلة أكتب ما يعصره المجهول علي .. وولدت هـذه المجموعة ... تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت امام الجدار أم اخترقته ؟ » .. انه ليس كاهناً اكتفى بتلاوة ادعيته ، إنه شاعر يخلق لغته الخاصة ، وعبر القصائد ، مع الشاعر الفنان وحساسيته المرهفة . نحوم فوق الجدار تارة كالفراش حول المصباح برفق انتحاري، وندقّ الجدار بأظافرنا تارة اخرى ، نخرج اضلاعنا بوحشية ضلعاً ضلعـاً نحاول ان نفتح فجوة في صمته الصخري البلوري ... معه نتمرد ونـذوي ونحتج ونستسلم في انشودة لها زخم صلاة مساجين جرحى منطلقة عبر كوة السجن ..

المذهل ، روح التمرد في كلماته ، ذلك التمرد الفكري الذي يمزقه :

« أحب ان اسأل .
لان الجواب في جنازة الصمت .
لا سؤال عندي .
لان الجواب اعرج ... »

وكيف يتابع ، وكيف يتمرد وقد :

« حبسني الملاك في اعماقي .
متى اتحرر من الحضيض ؟ »

ويتساءل من جديد :

« أتبقى اللغة في صلابة الأشياء ؟ »

ولكن في لغة شاعرنا صلابة مشحونة بالايحاءات ... فيها صلابة الحلم حينما تمتزج الاسطورة بالحقيقة .. وفيها غنى من توابل المعرفة الانسانية التي يغتني بها رجال الدين عادة عبر دراساتهم الروحية ويحولها شعراؤهم إلى زخم انساني عتيق يضيء كزيت أول زيتونة بوركت في التاريخ ...

ويتم ذلك أيضاً عبر اشارات كثيرة ، ومزيج من أساطير توراتية وانجيلية واغريقية وعربية (برثلماوس — آجيا صوفيا — قلة دليلة — شمشون — المزمور الواحد والخمسون — قصعة هيرودس — كفرناحوم — العتبة الهابلية — دخان سادوم...) ... نجد ذلك في كثير من روائع الشعر الغربي القديم ، في ملتون وشوسر وحتى لدى شكسبير ، ونجد هناك عادة هوامش تشرحها وتشير إلى اصلها ، الامر الذي لم يمنحه شاعرنا لقارئه (حسن ظن مبالغ فيه بمعلومات قارئه وناقده) ...

في قصيدته « التحرر » حس عميق ومباشر بمأساة الانسان المعاصر ، اذ يصرخ :

« لمن تسرق الدواة ، والرفش ، وسوار أمي ؟ !
يا ضمير العالم .
فجر فقاقيع امريكا .
تحت قميص الشمس . »

وهنالك ذلك الحب الكبير للحرية ... وتوق إلى فردوسها :

« عشيرتي تبكي .
لان العبيد يلحسون قدور الحرية .

يلعقون دسم الزيت من ملعقة
لقيصر ، لفرعون ، لارملة المليك .
هل في افريقيا فردوس ؟ »

شاعر التحرر والحرية ، وكاهنها ، كيف استطاع أن يكون سجّانها ؟ أن يكتب كلمة نقد يمكن ان تكون قضيباً لقفصها ، وهو الذي استل من صدره ضلعاً ليحفر جدار الموت بحثاً عن الحقيقة ؟ ... لماذا يريد « تقليص إنسانية » نديم البيطار ولكنه يقف ضد « تقليص انسانيته » هو ؟

الثائر السجان ..

لانني وجدت في قصائد الشاعر يوسف سعيد كثيراً من التقديس للفكر الحر ، « لولا اللغة لانحبس المطر » ، ومعاناة للحظات الوعي الموجع « مشيئة اللفظ محمومة » ذلك كله جعلني اتساءل : أحقاً أن هنالك « سوء تفاهم » بيننا وبينه ؟ تراه لم يفرّق بين دفاعنا عن المبدأ الذي تمثله حادثة نديم البيطار وبين دفاع قد يكون عن آراء نديم البيطار ؟ ..

هل هو سوء فهم أم تعمد اساءة فهمنا ، كي لا يقول أكثر ؟ ... وتراه لا يريد أن يقول أكثر لانه لا يريد ان يفكر أكثر ؟ ...

لماذا حكم علي وعلى زميلي بجرم « الالحاد » وهو يعرف جيداً اننا لم نرتكبه بعد أو على الاقل لم نقر بارتكابه ؟ .. تراه يجد في اختراق الجدار إلحاداً ؟ .. انه كشاعر يستطيع اختراق الجدار لو اراد . تراه يخشى ذلك بقدر ما يريده ؟ تراه لذلك يصرخ « يا رب ، حاشا ان ألمس هدب الموت » ... تراه يخشى لعنة بروميثيوس ؟ وهل هو كالقاضي الذي يحكم على الابرياء من اجل جرم يخشى هو أن يرتكبه ؟ ولماذا يذكّرني بقصة الكاهن الذي وقف يعظ أهل المدينة بحرارة طيلة ساعات ضد ارتكاب خطيئة مميتة ، ثم تسلّل إلى الغابة ليرتكبها بنفسه ؟ . لا ادري ..

كل ما أدريه انني احببته كشاعر ، ومن أجل حبي لكلماته « المضيئة ، المعتمة ، المميتة » أفجر غضبي لها لا عليه ، غضباً كمطر الخريف ، حزين وشرس ومحب ...

صديق ، همس في أذني : الاب يوسف سعيد ولد في القطر الذي طرد نديم البيطار وأصله هناك قبل مجيئه إلى لبنان يوم هرب ذات زمن من اضطهاد فكري تعرّض له .

قد يكون في ذلك ما يفسر الكثير دون ان يُسوِّغَهُ ...

إن حرب شاعرنا ضد القوى التي اضطهدت فكره يجب الا تتحول إلى حرب ضد أي فكر غير فكره . أقول : الخطيئة لا تحارب بالخطيئة ... اعرف ان الذي (يأكل العصي) ليس كالذي يحصيها .. ولكن الشاعر ، كاهن الوجود ، مطالب بالغفران كما غفر المسيح لصالبيه ، وكما غفر محمد لراجميه ، وكما يسمو اصحاب الرسالات فوق الاحقاد .

وبعد ، سيدي الاب الشاعر :ادافع حتى الموت عن حقك في نقدي لانني ادافع حتى الموت عن حقي في ان اقول ،وان يقول نديم البيطار ،وان يقول غاليليو ، وان يقول الانبياء والاطفال ... واردد معك :

« من أنا حتى أكمّ افواه الينابيع ؟
وأكمّ اشداق القطط والذئاب ؟
حتى أخيط شفاه الاطفال
في حفلة الشعانين ؟ ... »

١٩٦٩/٣/١٤

دفاعاً عن حرية الفكر لا عنه !

كان ذلك البريق الطفولي الضاحك الذي لم ينطفىء في عينيه منذ عرفته — منذ اعوام بعيدة — يشتعل ، وضحكته تملأ وجهه المتوقد ، حتى ظننته سيروي لي آخر نكتة سمعها ، وتحفزت للضحك . كنت حزينة حتى الضحك . أبحث عن مبرر لأضحك ، لكنه اخرج من جيبه صورة وقال كأن الأمر لا يعنيه : هذه آخر صورة التقطت لي خلسة .. انها في سجن (....) ! ! ..

وأمسكت بالصورة ثم استحلت إلى تمثال متحجر في يده صورة تصرخ وتنزف . ثم انفجرت أضحك وأضحك كما لم أبك منذ أعوام .. كان من الصعب أن أصدق ما تراه عيناي ... قاتل ؟ لا . مهرب كوكائين ؟ لا . لكن الشعر مجزوز حتى جلد الرأس (وربما حتى العظم ، حتى النخاع . يا موسى السلطة ، يا مقصلة الحرية ، ارفقي برؤوس الذين يتعاطون التفكير بحرية — وما أندرهم في بلادي —) .. أجل الشعر مجزوز والجسد النحيل الذاوي تلفه ثياب السجن .. والسجين أديب من بلدي .

مد بقية رفاق جلسة المقهى أيديهم ليروا الصورة — النكتة . كان أحدهم يتثاءب ، وكانت تمطر دماً في حلقي لذا أخفيت الصورة عن الجميع ، ولحسن حظي دخلت فتاة جميلة إلى المقهى فنسي الجميع حكاية « الصورة — العار » .. وقلت له بإصرار : هل تعرف معنى هذه الصورة ؟؟ .. كيف تسمح لإنسان برؤيتها ؟ ..

واحسستني اخفي « الصورة — المأساة » واتوسل إلى صاحبها أن لا يسمح لأحد برؤيتها كما يتكتم أفراد الاسرة الواحدة على عار مشترك ... خجلت من ان يرى أي انسان عربي هذه الوثيقة المهزلة لرجل أُدخل السجن شهوراً من أجل « كتاب » ثم أفرج عنه بصمت ايضاً ودون محاكمة ودون تبرير ...

أهل مدينة الجذام

مثل هذه الامور (الدقيقة) تعوّدنا ان نتحاشى الحديث عنها ...

مثل هذه المهازل والمآسي تعوّدنا ان نمر بها دون ان نتدخل « نمشي من الحائط إلى الحائط ونقول يا ربي السترة » . تعوّدنا ان نرى الناس يزجون في السجون فنصلي في أظلم ركن من بيتنا شاكرين قوة ما لأن السجين هو جارنا وليس نحن (حوالينا ولا علينا) . هذه الصورة الرهيبة ظلت مدموغة على شبكية عيني وشماً من جمر ، ليس لان صاحبها أديب أعرفه ، يحزنني ان يسجن ، ولكن لأنني مواطنة أحسست أن السلطة التي تحكم باسمي وباسم باقي الشعب قد استخفّت بي ..

لم يمزّقني أن يُسجن هذا الكاتب بقدر ما مزقني أن يُطلق سراحه بلا محاكمة وبعد سجن شهور ! ! ..

أن يُحاكم ، وأن تثبت إدانته أمر يمكن أن يحدث لأي مواطن في أية دولة ..

أما أن يملأوا صدره بالنياشين باسم الشعب أي باسمنا ثم ينتزعوها ويسجن عدة أشهر أيضاً باسم الشعب (أي باسمنا) ثم تفرج عنه السلطة باسم الشعب أيضاً دون أن تحس السلطة بالمسؤولية ، أمام ذلك الشعب ... بواجبها في اعطاء تفسير على الاقل أو أصدار بيان فذلك يدين تلك (السلطة) ... لم يفجعني أن يدان أو لا يدان بقدر ما فجعني ان في تلك الحادثة — التي تصادف انه بعللها — ما يدين (السلطة الثورية) التي قامت ثورة من اجل الحرية وها هي تقدم أكثر من دليل على استخفافها بنا ، وتدمغ مقصلتها التي نصبتها باسم الحرية ، بدم رأس الحرية ! ! ..

في بلدان العالم غير المتخلف حيث الإنسان ، أي إنسان — حتى المجرم صاحب السوابق — قضية . في تلك البلدان يحق للفرد أن يُقاضي السلطة اذا تم توقيفه أو سجنه على ذمة التحقيق ثم ثبتت براءته ... ويحق له المطالبة بمحاكمة عادلة حتى ولو كان قاتلاً .

عندنا . لا يملك الانسان حتى حق الطلب بتقديمه إلى المحاكمة ! ! ... كافكا حينما كتب « المحاكمة » وروى « مأساة الانسان المحكوم بلا جريمة » على انها ذروة المأساة الوجودية ، لم يدر بخلده أن هنالك نمطاً من الظلم أشد هولاً ، يدور في بعض اقطارنا العربية دون أن يعيره أحد ما يستحقه من التفات ، ألا وهو حجز حرية انسان وسجنه وادانته سلفاً بتهمة لا يعرفها ولا يُبَلّغ عنها ولا يقدم إلى المحاكمة بسببها مهما توسل لأجل ذلك ! ! ... كافكا تحدث عن مأساة رجل حوكم ثم أخذه الجلاّد إلى المقصلة ليموت « ميتة كلب » لجريمة لم يرتكبها على أنها ذروة المأساة الانسانية ...

لم يدر بخلد دانتي حينما وصف الجحيم في الكوميديا الإلهية ان يتحدث عن أشد أنواع الاذلال التي يمكن ان يتعرض انسان له : ان يسجن دون أن يحاكم . ان يموت

أكثر من مرة كلما أُطلق الرصاص ذات فجر بارد في فناء السجن على رجل ما .. وأن يُحرم من حقه حتّى في الادانة ! ! ..

وأخفيت الصورة، دفنتها في أحد المعاجم كي أضمن عدم التقائي بها ولو مُصادفة..

وقررت أن أنسى الصورة العار ، وأصمت ، كما اعتدنا ان نفعل جميعاً .. ذلك الصمت الحزين الشاحب اللامبالي ، صمت أهل مدينة اجتاحها الجذام والطاعون حتّى لم يعد يستوقف عابري السبيل مشهد انسان تتساقط اعضاؤه أو يحتضر على الرصيف عند موقف الباص متشنجاً مصلوباً على أحد أعمدة الكهرباء .. حتّى المصباح الشاحب لم يعد يرتجف نوره ! ..

ومرّت الايام .. وأنا أسوّر مشاعري بما تواطأنا عليه ضمناً : « تلك أشياء لا تقال» اصمتّي يا بنت .. ولكنني فشلت .

الأشياء التي لا تقال « لا مفر من أن تقال » !

١٩٦٩/٣/٣١

جريمة أن تفكر علناً !

هنالك مأساة فكرية طالما تهربت أكثر السلطات العربية (من رجعية وثورية على السواء) من مناقشتها رسمياً ، وصار مفهوماً لدى الجميع انه من الافضل للاطراف المعنية (من ادباء وصحافيين) تجنّب طرح القضية التالية :

من حيث المبدأ ، هل يحق لأية سلطة حاكمة ان تضطهد مفكراً ما لمجرد ان افكاره لا تنسجم — أو لا تتطابق — وشعاراتها ؟ ...

وإلى أي مدى يحق للسلطة ذلك ؟

هذا السؤال لم تبق أمة لم تطرحه ، ولم يمر عصر دون أن يسقط الكثر ضحية له .

وقد استطاعت الشعوب الأقل تخلفاً ان تتجاوز المأساة — نسبياً — ... وغاليليو الذي اتهم بالهرطقة منذ قرون ، لانه أصر على أن الارض هي التي تدور حول الشمس ، وليست محور الكون ، غاليلو هذا قد برّأته الكنيسة في العام الماضي ! ...

أما في بلادي ، فما نزال نعيش بعقلية القاضي الوزير ابن الزيات في العصر العباسي الغابر .

فقد أقنع هذا القاضي الخليفة ببناء قفص فرن ليشوي فيه خصومه (الفكريين) أحياء ! !

وجاءت الردة أو لنقل (بلغة عصرنا) وقع (انقلاب) اطاح بسلطان ابن الزيات وجاء إلى الحكم بخصمه اللدود القاضي أحمد بن أبي دؤاد ..

وانتقم ابن ابي دؤاد من خصمه ، وبالاسلوب ذاته .. وتم شوي ابن الزيات في الفرن حتى الموت (الفرن الذي كان قد افتى ببنائه لحرق خصومه) ...

عصور وعصور ... وكل خصومة فكرية في بلادي ما تزال تحل على طريقة ابن الزيات وابن ابي دؤاد ...

تلك هي مأساة الفكر العربي التي عجزت حتى بعض أقطارنا (الثورية) عن تخطيها ...

المطلوب ايقاف مأساة ابن الزيات وابن ابي دؤاد وافران الفكر في بلادي .

وحتى النهاية ، أظل أردد قول فولتير الرائع : « انني لا اوافقك على كلمة مما تقوله ، لكنني ادافع حتى آخر قطرة من دمي عن حقك في أن تقوله » ...

١٩٦٨/١١/٢٢

الحرية ! الحرية !

« ان المواعظ لا تقنع أبداً...وان ندى الليل البليل،ليغوص أعمق منها فيّ نفسي، والآن أفحص ثانية الفلسفات والاديان ، وهذه قد تبرهن على وجودها ، في قاعة المحاضرات ... ولكنها لا تبرهن ذلك على الاطلاق،تحت الغيوم الرهيبةالفسيحة » .

و. ويتمان

وفي ليل هذه المرحلة من تاريخنا العربي — ربما أكثر من أي وقت مضى — ، يجد الفرد نفسه مرغماً على « اعادة النظر في الفلسفات والاديان » ومنطلقاته كلها ، وحتى البسطاء « لم تعد المواعظ تقنعهم » ، واذا كان « ندى الليل البليل » و « الغيوم الرحيبة الفسيحة » قد دفعا بالشاعر ويتمان إلى لحظة « اعادة نظر » صوفية ، فان واقعاً اليماً معاشاً هو ما يلزم مئة مليون عربي لإعادة النظر ، مئة مليون ليسوا مفروشين تحت « تلك الغيوم الرحيبة الفسيحة » فحسب ، بل وتحت سقوف سجونهم أو في معتقلات الاحتلال ، أو في ظل انظمة تقنعهم أو لم تعد تقنعهم ، ويجمع بين ذكيهم وساذجهم، ثوريهم ورجعيهم احساس عام مسترسل بأن الارض تحت اقدامهم جميعاً لم تعد صلبة ، وبأن صحراء من الرمال المتحركة قد امتدت فجأة من المحيط إلى الخليج ، وان رملها المتحرك بدأ يبتلع كل شيء ، يغوص فيها السجان والسجين على السواء ... القاتل والمقتول ..

قابيل وهابيل

فماذا حدث ؟؟ ... وكيف ضاعت المرافىء والمنارات والاوتاد ، وعمّ ذلك الحس العام بالفجيعة المذهولة ، بالحماس المشتت ، بالقلق . الحيرة . الخـــوف . الحذر ؟ .. بالحاجة إلى التبديل . إلى صرخة « لا » أمام سقوط جماعي في صحراء الرمل المتحرك التي انفتحت تحت قدميه منذ فقد يقينه بكل شيء ؟ .. زلزال ؟ أم سلة زلازل ؟ البركان الاخير ، « تهديد اسرائيل » لخبزه وبيته بغزو مسلح قد لا

يقوى على رده ؟ صفارة الانذار ، النكسة الاخيرة ؟ .. تصاعد وتراكم عوامل متشابكة لا تحصى ؟

« لا » أولاً وآخراً

كلٌ يصرخ « لا » وعلى طريقته . وضمن حدود امكاناته الفكرية وغير الفكرية. جيلنا الطالع يصرخ « لا » بسلبيته وبايجابيته . طلابه يقذفون « لا » حجارةً على (زي) رجل الشرطة الذي يمثل لهم (المنطق الرسمي) في التصدي للامور ، منطق (الكبار)..

العامل يزداد احتضاناً لكتابه (الاحمر)،الموظف لزجاجة خمره الرديء ونعاسه. سرحان الفلسطيني يفجر « لا » رصاصةً في الرأس « الاميركي البشع » ممثلاً له في كنيدي .

وحتى « المؤمن » الذي كان يختم صلاته بالدعاء للسلطان أيا كان بالنصر ، وينيبه بأن يصرخ « لا » عنه (ما دام يحمل اوراق اعتماده من السلطات الالهية والذي علمه من « أعقلها وتوكل » ان يتوكل فقط !) ، حتى هذا الرجل الذي كان زيادة في الاحتياط يكتب على باب بيته المجاور للمسجد الاقصى في القدس أو الجامع الاموي بدمشق « الملك لله » لم يعد بوسعه ان يكتب على باب خيمته « الملك لله » ...

لقد تكسرت الدروع القديمة التي كان الفرد العربي يستر بها (عورات) تخاذله وسلبيته ، وحتى الدروع (الجديدة) التي قاتل ليرتديها ، بل وليرغم سواه على ارتدائها ، لم تؤت أكلها ... حتى هذه الدروع ، (لخطأ ما) في طريقة صنعها أو طريقة ارتدائها واستعمالها قد انقلب سحرها .

أين صوت الأديب ؟

وفي مثل هذه المرحلة بالذات حينما يصبح الخبز مراً ، والبندقية تصيب مطلقها بدل الهدف ، تصبح الحاجة إلى « الكلمة الحرة الصادقة » امراً أهم من الخبز والبندقية ، لأن الاديب وحده قادر على ان يفسر حقيقة « اللعنة » ، ولأن مفكري الامة قد يكونون مقعديها ، لكنهم مبصروها (بمعنى البصيرة) ، ولذا فانه من الضروري ان لا يتخلى الثوار المشاة المنفذون الاشداء ، عن مفكريهم المقعدين ، انما المبصرون ، (حتى ولو كانت الحجة هي استبدالهم برغيف أو ببندقية) ..

فالتاريخ العربي لم يثبت شيئاً بقدر ما اثبتت احداثه المتعاقبة منذ قرون حتى اليوم

ان حاجة الفرد إلى اديب هي اهم من حاجته إلى الخبز المر وبندقية فاسدة السلاح ، وان « ساحر القرية » العتيق ليس الا صورة رمزية بدائية « للأديب » ، الذي يشخص « اللعنة » و « العلاج » للخبز وللبندقية .

وبعد ، الأديب الحر هو بوصلة الحاكم لأنه حنجرة المحكوم . . . والحيلولة بينه وبين حريته أمر يلغيه ، ويلغي أهمية شهادته وصوته، وإذا كتمت الدولة هذا الصوت فلن يعود عليها إلا بالخسارة ، وهي هنا كالذي يضع عصابة على عينيه برضاه كي لا يرى وانه (لا يخشى هذه الحرية إلا واحد ، هو غير الحكيم . وبُعد الحاكم عن الحكمة انما يُقاس ببعده عن حب حرية الرأي ـ نجيب محفوظ) .

١٩٦٨/٨/٢

عاقبوه بقسوة ، ولكن بعد محاكمة علنية عادلة

في بلادي ، في بلاد البسطاء ، تقول أمثالنا فيما تقول « نحن مع الواقف » و « من يتزوّج أمي يصير عمي» ، وتصفق أيدينا لمن في يده السلطة، ثم تحمل الخناجر ملتفة حوله متى سقط ..

وهكذا ليس للحاكم عدو ..

وليس للخارج من الحكم صديق ..

وهكذا وكاتب زميل في السجن، لم يعلُ صوت من أصوات أصحابه أو اعدائه ليقول كلمة واحدة من أجل حرية الفكر لا من أجله ، والذين لم يسلّوا سكاكينهم اكتفوا بالصمت .

لا حباً مني بشخص السجين أكتب الآن عنه ، وانما ككاتبة عربية قرأت ذات يوم له وقدّرته لمؤلفاته الموضوعة والمترجمة التي أغنى بها المكتبة العربية .

ذلك كله ، يجعل من التهم التي توجه اليه أمراً خطيراً لا يغتفر — لو صحت — ويدفعنا بالتالي إلى المطالبة :

١ — بمعاملته معاملة انسانية كريمة في السجن،فكل متهم بريء حتى تثبت ادانته.

٢ — بمحاكمته محاكمة عادلة وعلناً لأن أي تدخل لصالحه أو ضده من أجل طمس قضيته أو طمس حياته ، سيدين نهائياً (وفي عيون كل مثقف عربي) السلطات الحاكمة؛ ويجعل من شائعات الشراكة في (دفن الشيخ زنكي) حقيقة مؤكدة من طرف واحد : هو الطرف المتكمّ والذي بيده الاختيار : السلطة ..

٣ — هذه فرصة ترد فيها السلطات لمواطنيها ثقتهم بعدالتها وحيادها . وباحترامها للفكر ولحرية الكلمة وللمواطن : لحقّه في المعاملة الانسانية والدفاع عن نفسه ، بقدر حقها في صرامة العقاب بعد إدانته .

١٦ / ٥ / ١٩٦٦

همسات سرية ، لأجل حرية للفكر علنية !

كان كل شيء يدور كما هو مرسوم له .. الممثلون على المسرح يتابعون أدوارهم. المتفرجون فوق مقاعدهم في الصالة . وزجاجات المرطبات الفارغة تحتها ..

ثم فجأة ، اضطرب كل شيء .. انتقلت الزجاجات الفارغة والمقاعد إلى خشبة المسرح قذائف موجهة . وهرب الممثلون إلى ما وراء الكواليس ، وعلا الصراخ ، وهرع مدير المسرح إلى مكبرات الصوت يناشد المتفرجين الناقمين ان يغادروا القاعة ليستمر العرض .

لم يقع هذا الحادث على مسرح من مسارحنا كما قد يتبادر إلى الاذهان ، وانما كان من نصيب مسرح — الاوديون — في فرنسا ، اثناء تقديم مسرحية جان جانيه « الرداء » .. والمسرحية تدين فرنسا في حربها مع الجزائر وتسخر منها ..

مثل هذا الحادث لا يمكن ان يقع أبداً في أي بلد عربي ، لا لوعي المتفرجين — طبعاً — ولكن لأن أكثر السلطات لا يمكن ان تسمح بطبع أو تمثيل مسرحية أو قصة قد تحمل تعريضاً مباشراً أو غير مباشر بها أو بسياستها . انها حقيقة لا مفر من الاعتراف بها — كخطوة اولى — قبل مناقشة مدى ضرورتها أو شرعيتها ... الكاتب العربي ليس حراً في أكثر الاقطار العربية ..

إذا تجاوزنا الضغوط الاجتماعية والتاريخية وضغوط بيئته ورواسبه الذاتية ، نجد انه يتعرض أيضاً إلى ضغط واضح مباشر ، هو ضغط السلطات الحاكمة ... ففي أكثر من بلد . تتعرض الكتب أو المقالات التي جرؤَ أصحابها على تسطيرها ، إلى المصادرة أو القص أو المنع من دخول مكان أو آخر (هذا في حال السماح بنشرها) ... وللسلطات أيضاً اعذارها التي تقدمها ، منها أن الكاتب عميل — وقد يكون ذلك صحيحاً احياناً — أو ان كتاباته تسيء — من وجهة نظر الحاكم — إلى افكار الناس .. وقد ألفنا ذلك في بلادنا حتى كدنا نعتبره جزءًا من مسلماتنا التي لا تناقش ..

ومع ذلك ، فالنقاد يشكون من الكتب الجنسية التي تُغرق السـوق .. والقراء يشكون من تفاهة الكتاب .. والمثقفون يشكون من ضحالة ما ينشر وافتقار أدبنا العربي إلى الادب الساخر ، والعلمي الخرافي ، والخلاق الجديد .

كلهم يشكون من الكاتب ...

ولكن الكاتب عاجز عن تقديم أهم بند في الدفاع عن نفسه : هو انه محكوم عليه بالتفاهة اذا كان يريد ان يعيش غير مطارد من قطر عربي ما .. وأنه محكوم عليه بان لا يطرق الموضوعات المصيرية بصدق وتجرد ما دام عاجزاً عن استئصال معدته فيما لو جاع ... وما دام مضطراً أولاً أو آخراً إلى الرضى ببيع قلمه الذي كان حراً إلى سلطات اخرى تستضيفه وتحميه ، وربما كان يحمل لها كثيراً من (اللااحترام) ، وربما كانت له عليها نفس مآخذه على السلطات الأخرى التي تجرأ وهاجمها ...

شيء واحد تمنيت أن أقرأه في بيان وزاري يصدر في بلد عربي.. إنه اطلاق حرية الفكر والسماح للمثقفين بالكتابة في الموضوعات المصيرية، بل استفتاؤهم والاهتمام بآرائهم ..

فقد صارت التفاهة (الشيك) الوحيد الذي يمكن صرفه في أي مكان .. وصارت السطحية واللامبالاة بالاحداث تأشيرة الدخول الوحيدة إلى عالم الطمأنينة الاجتماعية والسياسية ..

وعذر السلطات الدائم في (توجيهها) للفكر هو عدم نضج الشعب العربي بعد وخوفها من (غوغائيته) ... انهم في بلادنا يمنعون الفكر باسم الغوغائية .. وهم هناك يمنعون الغوغائية لحماية الفكر ...

البوليس هناك يحمي المسرح والمسرحية ، والبوليس هنا موجود ليمنع الفكر باسم تربية النشء وتوجيهه ..

ترى كيف يتخلص الناس من الغوغائية ما دمنا نمنعهم من قراءة أي شيء سوى التفاهة ؟ ...

هذه الحلقة المفرغة ، من سيكسرها في بلادنا ، موطن الديانات والافكار الجديدة؟

٧ / ٣ / ١٩٦٦

على حد المقص .. !

قرأت في احدى المجلات رسالة موجزة لقارىء أوجز اسمه ، يحتجّ فيها على مقص الرقيب ، الذي يحرمه أحياناً من بعض الصفحات ..

رسالة صغيرة مجهولة ، حرّكت — ربما دون أن يدري صاحبها — السكين المغموسة في حلق كل كاتب أصيل في بعض الاقطار العربية ، يبدأ متماسكاً صادقاً مفعماً بالآمال ثم ينتهي ممزّقاً متخبطاً ، ضائعاً بين مُثُله وواقعه ، مفجوعاً بوباء الازدواجية العام ، الذي يكاد يستولي عليه .... ينتهي إما بالسقوط في التفاهة أو الصمت .

التفاهة أو الصمت قدر الأديب في بلادي ... لماذا ؟ ...

لأنه ليس مقص الرقيب وحده هو الذي يمعن في تمزيق الكلمات التي لا تنسجم وآراءهُ ، هنالك عشرات المقصّات الأخرى التي تمر بها الكلمة في بلادي في طريقها من حنجرة الكاتب إلى قلب القارىء ...

هنالك درب من المقصّات ...

فالمفجع ان عالمنا العربي يمر بمرحلة من تمييع القيم والمفاهيم والتناقضات ، والرياء الاجتماعي — إلى جانب التعنت الفكري الاستبدادي في بعض الاقطار ، مما يجعل التفاهة هي الشيء الوحيد الذي يلقى قبولاً جماعياً .

التفاهة هي القاسم المشترك الوحيد تقريباً الذي تفتح في وجهه الابواب .... والذي لا يلقى ردة فعل ... ومع ذلك فنحن نسمع من وقت إلى آخر صرخات احتجاج على تفاهة ما يُكتب . أو قصائد رثاء تنعى أدباء عرباً بدأوا كباراً ثم كفوا عن العطاء واختاروا الصمت على التفاهة ولم يجدوا درباً ثالثة ... اننا نبكي ادباء قتلناهم وهم أحياء ونرفض ان نرى كيف غرسنا الخناجر في حلوقهم ...

يبدأ الكاتب بصرخة كبيرة فتية في حلق ما زال مزروعاً بالبراعم : « سوف أقول ولو كلفني ذلك حياتي ... سأقول دوماً الحقيقة » ... ثم يكتشف انه لا يستطيع

أن يقولها حتى ولو دفع حياته ثمناً !! .

انه سوف يموت على رصيف بارد وسوف تتجمد الكلمات في حلقه وتنطفىء قبل أن يسمعها أحد ... ثم تضيع عنه الحقيقة .. ففي درب المقصات هنالك أكثر من مقص اعمى واطرش ، يحمل الصفات نفسها التي يحملها ذلك الوحش الاعمى الاطرش الذي سماه شكسبير : « المجتمع » !..

في البداية يكتشف ان عليه القيام بمحاولة «تكيّف» مع رغبات الناشر كي يجد كلماته في صيغة حبر وورق... والناشر بحاجة إلى التكيّف مع ارشادات حسابات المبيعات.. وحسابات المبيعات تدخل فيها عشرات من الاعتبارات السياسية والاجتماعية .. وعشرات من الاعتبارات التي ربما ما كتب الاديب إلا احتجاجاً عليها أو على انحرافها أو عقمها ... ثم يكتشف ان القضية ليست مجرد « تكيّف » اختياري ... ثم يكتشف ان المقصّات انتقلت إلى داخله ، ان عشرات من عيون الآخرين تتفتح على لسانه كالقروح ، ترقبه بينما يكتب ، عشرات الألسن التي طالما احتقرها تتدلى كالسياط على أكتافه ، تزجّ باصواتها مع صوته ...

وحينما يتمرد ، يكتشف أن هنالك مقصاً آخر ولد معه : معدته ! .. ويكتشف ان أولى مآسي الاديب هي انه لا يستطيع استئصال معدته ، ولا يستطيع استئصال نفسه تماماً من مجتمعه .. وان المعركة لن تهدأ الا اذا قبل بمساومة أحلى اسمائها « الحياد السلبي » واصدق اسمائها « التفاهة » ...

البطولة الوحيدة التي تبقّت للأديب في بلادي في هذه المرحلة ، ليست في النصر ، وانما في الاستمرار أطول مدة ممكنة قبل السقوط النهائي في الازدواجية ، أو الانضمام النهائي إلى مدجنة المجتمع ، أو رشوة الذات بقناعات زائفة لمجرد انها تلقى الرواج في سوق المهازل الكبرى ...

انه محكوم بالصمت سلفاً ، وكلماته محكومة بالعبودية لمغاور دامية في رئتيه .

ومع ذلك ، فلنصرخ ولو لمرة ، ولنسقط بعدها على جرف الصقيع المعتم .

١٢ / ١٢ / ١٩٧٣

خوفنا على الحرية أكبر من خوفنا على السر !

أكتب هذه الكلمات صباح الاربعاء ١٢ كانون الأول ، والمطر يرسل خراطيمه بعنف ، وعبثاً يغسل عن قلوبنا ما علق بها طيلة الاسبوع الماضي من مخاوف وقهر وحقد ... (أجل حقد هي الكلمة) ، وربما كان المطر يدلف من سقف سجن الرمل ، ولعلّ الصحافي السجين (....) يحرِّض الآن سائر السجناء على العمل لاصلاح السقف ، (حاول قبل يومين طلب كميات من الدهان ليعمل والسجناء على دهن السجن وطبعاً رُفض طلبه لان كل محاولة للتخفيف من بشاعة هذا العالم مرفوضة ولان مصير الذين يحاولون ذلك هو السجن) ...

* * *

ما أود قوله للحكم هو أن الرجوع عن الخطأ ليس فضيلة ! الرجوع عن الخطأ واجب ! ...

فسجن الصحافي (.....) ليس قضية شخصية . ولا قضية لبنانية ، بل قضية تنكأ جرحاً عربياً وتاريخياً في قلب كل مثقف لا يزال يطمح إلى ان يمد بأصابعه الهشّة إلى افق الفكر العربي المعتّم في بعض الاقطار ليدفع بشمس الحرية ، أي الجمال أي الخير والمحبة والايمان ، إلى البزوغ ، دون أن يمتد سيف الجلاد ليقطع أصابعه !

ان سجن أي كاتب بجريمة ممارسة حرية الفكر يطلق في عيوننا تاريخ المفكر العربي مع بعض حكامه مثل شرارات تعذيب يرتجف لها جسدنا قهراً وغضباً وحقداً . ذلك التاريخ كان غالباً موجعاً ، وكان صدر الحاكم العربي يضيق مراراً بعصافير عقل المفكر الباحثة أبداً عن أفقٍ جديدٍ ورؤى جديدة .

الفظيع في لعبة قمع الحرية هو أنها مثل لعبة (الاستغماية) لا تميّز بين أصحاب

الاتجاهات المختلفة ، ومن هنا كان تضامن اعداء الصحافي (....) معه قبل اصدقائه – ووقوفهم مع قضيته ليس واجباً فكرياً فحسب ، بل هو أيضاً نوع من النرجسية أو الأنانية أو بُعد النظر ، قبل ان يمر بهم سيف الجلاد المعصوب العينين .

متى يفهم لبنان ان في البلاد العربية كلها شواطىء وشمساً مشرقة وأرزاً وثلوجاً وفنادق وكباريهات ونساء جميلات وكبّة وتبولة ولكن معجزة لبنان الوحيدة هي الحرية النسبية التي ننعم بها (أو نتوهّم ذلك) ، ولذا كان لرمال لبنان وجباله ونسائه ومائه وهوائه طعم آخر ... وبدلاً من ان يطعّم لبنان بالحرية أشجار القهر في أكثر البلدان العربية الأخرى ، نخشى ان نقول ان العكس بدأ يحدث ! ...

* * *

في اللحظة التي تقرأون فيها هذه الكلمات قد يكون صديقنا الصحافي مطلق السراح (أم تُراني متفائلة كالاطفال ، أجهل عوالم الكوابيس المتربّصة بنا جميعاً ؟) وقد لا يكون ...

ولكننا لن ننسى أنه قد سُجن ، والرصاصة التي تطلق لا تسترد ، فضعوا اشارة استفهام واحدة والف اشارة تعجب ولنبدأ صفحة جديدة هي صفحة الحقد .

لنبدأ من الأهم : إن خوفنا على « الحرية » هو أكبر من خوفنا على « السر » إن كان في الامر سر ! ... وخوفنا من اساءة استعمال النص القانوني وتسخيره لتقييد مفكر ما ، أكبر حتى من خوفنا من العيش بلا قانون تحت لواء شريعة الغاب حيث يتم الاعتداء علينا باسم الاعتداء السافر لا باسم الشعب .

وربما كان مكسب الحكم الوحيد من هذه الخطيئة هو أنها أنستنا خطاياه العشر السابقة الأقل خطورة من خطر تهديد حرية الفكر ... واذا كان المقصود دفع فواتير سياسية على حساب رفيق قلمنا ، فليتم ذلك خارج معبد حرية الكلمة ودون المساس بمقدساتها .

هنالك أشياء كثيرة تدور في الظلام نجهلها ونعرف اننا نجهلها ، ولكنني أعرف شيئاً واحداً : اذا تم اجراء استفتاء شعبي ، وطلب إلى المواطنين ان يسجلوا أسماء

اعدائهم الحقيقيين الذين يشتهون ان يغسلوا المقصلة بدمهم، ترى هل يكون على هذه القائمة اسم واحد من الموجودين داخل سجن الرمل ؟! . . .

* * *

إننا نصرخ بكل كيتنا التاريخي لحرية الفكر (الذي يفوق لدى العربي كل كبتٍ آخر) : أطلقوا سراحه ، وأطلقوا الحكم من سجن هذه الخطيئة المتدلية من عنقه مثل طائر المحبة الصريع (الألباتروس) في اسطورة «البحار العتيق» لكولريدج ! ...

١٩ / ٥ / ١٩٧٤

أطلقوا سراح حريتنا !!

اليوم ينقضي شهر ونيّف ، وزميلنا (.....) (*) في السجن .

مثل حصان بري نقي ، عبثاً يحاولون تدجينه ووضع اللجام المناسب في حنجرته وكتم النبض الحقيقي لقلبه ..

وحين جرّوه من زنزانته منذ يومين ليمثل امام المحكمة ، كان ما يزال صامداً ضد كل أساليب غسل الدماغ ، وكان يرى بوضوح ، كما نرى جميعاً ، أن توقيفه إهانة للصحافة وإذلال لكل حامل قلم ، وان حكاية « التوقيف الاحتياطي » المتسلطة على رقابنا جميعاً مثل مقصلة ، يجب أن تنتهي .. اذ يكفي ان يعبس أي حاكم في مقعده الهزّاز حتى تهوي المقصلة على عنق الكاتب الذي عكّر مزاجه ، سواء كان ذلك الحاكم على حق أم لا ..

* * *

وحين جرّوه من زنزانته منذ يومين ليمثل أمام المحكمة ، رفض ان يتكلم وهو موقوف كما رفض السماح لمحاميه بالمرافعة عنه .

كلنا نتحدث عن ضرورة إلغاء قانون التوقيف الاحتياطي للصحافيين ، لكنه هو لم يكتف — مثلنا — بالأقوال ، وانما كان سلوكه في المحكمة تجسيداً عملياً لأقواله .. وهو أمر قد يدفع ثمنه غالياً . لكن تحويل الافكار إلى سلوك معاش هو الوسيلة الوحيدة للتبديل ، ولغسل البشاعة عن وجه وطننا ..

« ان شيئاً لا يتحقق ، لا لسبب إلا لأنه ليس هناك من يجرؤ على ان يتبع مبادئه حتى النهاية. ان كل ما هو مطلوب ان نكون منطقيين حتى النهاية ومهما كان الثمن» — البير كامو .

(*) زميلنا (....) هو شخص آخر غير زميلنا (....) المذكور في المقال السابق بهذا الكتاب ، وقد حذفت الأسماء زيادة في التذكير على أن السجين أياً كان هو حرية الفكر التي لا تقبل مساومـــة .

وزميلنا السجين من الرجال القلائل في وطننا الذين اثبتوا عملياً اصرارهم على اتباع مبادئهم حتّى النهاية . وفي اصراره على عدم الكلام احتجاجٌ على « لامنطقية » التوقيف الاحتياطي وتوكيد عملي لقناعاته، مهما كان الثمن .. والثمن بالطبع اعادته إلى السجن ، السجن ، السجن ، السجن .

* * *

هو مسجون ..

ونحن نكتب عن النجوم والاشجار والعصافير .. الاشجار مشانق ، والنجوم فقاعات ، والعصافير أكاذيب تطلقها الغيوم ما دام ممنوعاً كل من يحاول التحليق في فضاء الحرية . ممنوع استعمال الاجنحة إلا وفقاً لشارات مرور علقتها « قوى خفية » في درب تحليقنا . وكل من يحاول التحليق – عكس السير – يُعاقب بقص أجنحته أو إحراقها .

ألا يعرفون أن الأجنحة كالمخلوقات الاسطورية ، وانها حين تقص لمرة ، تنبت من جديد قوية كجذوع الشجر وشرسة كالحقد ؟ ..

المأساة أنه حين يُسجن شخص ما يقف معه الذين تربطهم به صداقات ويقف على الحياد السلبي الذين لا تربطهم به معرفة . المهم هو القضية التي سجن لأجلها هذا الرجل الذي لا أعرفه أنا أيضاً . هذا الرجل مسجون لاجلنا جميعاً . قضيته هي قضيتنا .. صراصير السجن التي تفور حوله تنتظرنا ، ولكل واحد منا دوره .. وفي هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور قد يكون هنالك موظف ما يحرر مذكرة بتوقيفي وزجّي في السجن – توقيفاً احتياطياً – سواء كنت سأدان فيما بعد في المحكمة أم لا .. هذا ينطبق عليكم جميعاً . ومع ذلك مـــا نزال نحن حملة القلم نمر بالزميل المسجون كما لو انه شخص آخر . هنالك جزء منّا مسجون مع زميلنا ، وهذا الجزء اسمه « كرامتنا » وهي كلمة كانت تعني شيئاً ذات يوم . انه « نحن » . انه « الانا » . واذا كنا قد فقدنا القدرة على تحسس القضايا العامة ، وعلى اعتبار قضية زميلنا قضية «الحرية الصحافية» ،فلنقف معه من أجل أنانيتنا نحن ومن أجل مصالحنا الفردية الصغيرة، فكل واحد منا هو « مرشح سجين » .

فلتصب حروفنا بالشلل ، ولتسقط أقلامنا مغمى عليها فوق السطور – الاسم الرسمي لذلك هو الاضراب ، أليس كذلك ؟ – .. ولنصرخ معه : لا .. ولنصرخ : أطلقوا سراح حريتنا . وبعدها حاكموه وحاكمونا وفقاً للقانون .

١٩ / ١١ / ١٩٧٣

لبناني في الحرب

قتل خليل حسون . ع اخته خديجة لانه ضبطها متلبسة بجرم الذهاب إلى السينما ! ابنة الثامنة عشرة توسلت إلى شقيقها ان يصطحبها إلى السينما في ثالث أيام عيد الفطر لترى دريد لحام في فيلم « غوار الطوشي جيمس بوند » ، ولكن « غوار الطوشي اللبناني » رفض طلب اخته وذهب وحده ، وبينما هو خارج من السينما شاهدها تغادرها أيضاً فهاجمها بسكين الجهل وصرعها ... وأزهقت روح إنسانية لمجرد أن صاحبتها الصبية الصغيرة كانت مخلوقة طبيعية جرمها الوحيد أنها ، كشقيقها ، تحب الذهاب إلى السينما !

ومنذ أسابيع ، ذبح شاب بيروتي أخته لان عريسها العجوز اتهمها بسوء الاخلاق ومصاحبة العشاق . وشُرِّحَتْ جثة العروس المقتولة في آخر (شهر العسل) والمتهمة بالفسق ، فتبيَّن انها عذراء !

عشرات الجرائم ، عشرات الامثلة التي لا تخلو منها يوماً صفحات الجرائم ... والذي يلفت النظر فيها أن الشك ، مجرد الشك العابر التافه ، صار كافياً لارتكاب جريمة القتل ! لماذا ؟ لأن القانون بخصوص « جرائم الشرف » مطاط ، ولأنه بداعي « الاسباب الاخلاقية المخففة » يخرج كل مجرم من هذا النوع من السجن بعد شهور وعلى رأسه أكاليل الغار !

والذي يلفت النظر في جريمة خليل حسون . ع هو سنه ... انه في الخامسة عشرة من عمره . يده فقط غرست السكين في صدر أخته . إنه الأداة ولكنه ليس القاتل . القاتل الحقيقي هو المشترع الذي سن قانون « جرائم الشرف » بقصوره المرعب عن استيعاب واقعنا العصري . والقاتل الحقيقي هو مجتمع هذا الصبي ، وأسلوب تربيته وزرع المعلومات الخاطئة في رأسه ، وتحديد الهدف الخاطىء لغرس سكينه . فحينما يرتكب صبي في الخامسة عشرة من عمره جريمة قتل ، فالقاتل هو اسرته ورفاقه

ومدرسته ومجتمعه الصغير ... القاتل هو سلطة العادة والتقاليد والمفاهيم الخاطئة المتوارثة!

ولن أكرر هنا مطالبتي للدول التقدمية والثورية والمقاتلة العربية بتعديل القانون واعتبار ما كان يدعى « جرائم شرف » جرائم عادية تخضع للنصوص الزاجرة القاسية التي تشمل الجرائم الاخرى ، لانني سئمت سماع صدى صوتي الصارخ في وديان الصمم ...

ولن أقول لسيدات الجمعيات النسائية إن كل ما يتبجحن به في الاحاديث الصحافية عن « حرية المرأة وتحررها و ... و ... » هراء ، ما دامت المرأة لا تملك حق الحياة والحرية في القانون ، اسوة بالرجل ، ولا حق السفر دون موافقة « ولي الامر » ، ولا « حق الخطأ » الذي يملكه الرجل ، لانني أعرف ان أكثرهن لا يبالي حقاً بذلك كله ، والمهم لديهن قشور الحرية ومظاهرها من حفلات وصور وثياب عصرية يرتدينها ناسيات الخلخال في اقدامهن ! ..

ولكنني أتحدث عن خليل حسون ، القاتل ابن الـ ١٥ سنة ، لأؤكد دور التربية الخطير في سلوك الانسان ، ولأوضح دور المجتمع وتقاليده في دفع الانسان إلى القتل والموت .

هذا ليس وقته ؟ !

هذا زمن الحرب ، والجرائم الفردية لا تهم ؟ !

بل هذا وقته . ولانه زمن الحرب أتحدث عن خليل حسون . اتساءل بحرقة : لماذا تقاليدنا في لبنان تربط الشرف بجسد المرأة ولا تربطه بجسد الارض ؟

لماذا نربي أولادنا في البيت والمدرسة والشارع على فكرة ان المُحرَّم الأكبر هو عرض المرأة لا عرض الارض ؟

هذا الصبي ، الذي دُفع إلى ارتكاب جريمة عبثية لا فائدة منها لأحد ، كان يستطيع ان يكون مقاتلاً على الحدود الجنوبية لأرض لبنان التي تنزلق من بين أصابعنا يوماً بعد يوم ...

حربنا مع «اسرائيل» لم تنته... ربما بدأت حقاً الآن . وفي لبنان اعتقاد شبه نهائي وراسخ بأن لبنان عاجز عن القتال ! لماذا ، والفرد اللبناني ليس عاجزاً عن القتل إذا مس أحد مقدساته ؟ المرأة هي المقدس الأول والأوحد ، فلماذا ؟ لماذا لا تبدأ حملة توعية واسعة النطاق ، في الريف قبل المدينة ، لنزرع « تابو » آخر محرّم في النفوس غير المرأة ، هو الوطن ؟ ما دام ابن ١٥ سنة مستعداً للموت من أجل ما يظنه هدفاً

سامياً ، فلماذا لا نغرس فيه هدفاً سامياً حقيقياً ومجدياً حقاً ؟

عشرات الشبان الذين تفترسهم البطالة وتمضغهم آلات الفليبرز فينزلقون يوماً بعد يوم في هوّة الاحساس باللاجدوى وعدم الأهمية يحاولون عن طريق ارتكاب « جريمة شرف » ولو مفتعلة ، الحصول على شيء من الأهمية في مجتمعهم الصغير ، والتميّز بفعل بطولة ! فقد سرقنا من المواطن اللبناني ـ حين سرقنا منه حقه في الحرب وحقه في مشاركة المنطقة العربية مُثُلها ومصيرها وكيانها ـ شرف الانتماء إلى بطولة حقيقية وكبيرة ، فراحت النفس تفتش عن بطولات صغيرة « دونكيشوتية » هنا وهناك .

جرائم القتل الكثيرة المرعبة المستمرة في لبنان ، القبضايات ، « الزعرنات» الصغيرة التي تؤدي الى مذبحة ، والمشاجرات من أجل نساء الليل أو لأن شخصاً خاطب آخر بلهجة لم تعجبه (جريمة ملهى « البلو آب ») ، أليست هذه كلها تعبيراً عن مجتمع محروم من قضية كبيرة ، وعلى افراد تمزقهم ضحالة الأفق أمامهم ؟

كل هذا يدور ، والرصاص ، يطلق في إسقاط نفسي موجع من هدفٍ كبيرٍ إلى أهداف جانبية صغيرة ، ولكن رصاصة واحدة لا تُطلق في جنوب لبنان ! الجنوب يفرغ ، ينزح ، يموت أفراده عزلاً دون إطلاق رصاصة دفاع عن النفس واحدة ، والرصاص يطلق في لبنان في محاولة اسقاط للقضية الكبيرة !

ليكن الوطن « التابو » ، المحرّم الاول والأوحد . وليكن الموت محرّماً علينا إلا من أجله . ولتبدأ حملة توعية في هذا المجال ، وليتبين لبنان دوره العربي الحقيقي كي يكف ابناؤه عن التخبط .

وكفانا مهازل « جرائم الشرف » ! إن ابن زنا اضافياً تضعه امرأة ما ليس بكارثة في وطن يخون كل يوم شرف الانتماء إلى التاريخ والثورة والحرب !

١ / ٧ / ١٩٧٤

نساء أم « قتلة » !

دلال فتاة لبنانية أطلقت النار على شقيقتها ناهية « السيئة السمعة » وتركتها بين الحياة والموت ثم خرجت « تفتل شاربيها » على طريقة القبضايات وتقول : « من أجل شرف الأسرة ! .. »

للوهلة الاولى يبدو الأمر مثيراً ، فقد اعتدنا ان يحتكر الرجل حقل « جرائم الشرف » التي لا يزال القانون يمنح أبطالها أعذاراً مخففة ... ولكن المرأة قررت ان تقاسم الرجل كل شيء . العمل في سلك الشرطة ، وفي سلك الجريمة ! .. ثم لماذا يقتل الرجل لأجل الشرف ولا تقتل المرأة أيضاً ؟! .

هذا للوهلة الاولى . ولكن دلال التي قتلت ليست انثى . دلال التي قتلت هي السلوك الذكوري المتداول الذي يغرسه المجتمع في النشء منذ الطفولة، حتى صارت « جرائم الشرف » التافهة وغير الشريفة واللاانسانية طموحاً للعاطلين عن الحب والحياة والاخلاق . ولما كانت المرأة المقهورة في مجتمعنا ترى في الرجل أحياناً المثل الاعلى ، وترى في التشبه به أمنية ، لذا ليس غريباً ان تقرّر فتاة ما التصرف على طريقة « البطل الاجتماعي » الذي « يحصّل » شرف العيلة ... (ترى هل تمنح الفتاة الاسباب المخففة على جريمتها أسوةً بالذكور أم ان تحصيل الشرف هو أيضاً شرف رجالي ؟ !) .

هذه الحادثة لفتت نظري لأنها جزء من موجة جديدة بدأت تجتاح جيل الفتيات العربيات الصاعدات ، وهي موجة « الاسترجال » . ودلال التي أطلقت النار على اختها من اجل « شرف العيلة » تعبِّر تعبيراً حاداً عن ظاهرة واسعة ومنتشرة بحيث تلفت الانظار في الأوساط النسائية ، وهي ظاهرة تقليد السلوك الخارجي للرجل ، أو تقليد اسوأ وأسخف ما في سلوكه مثل جرائم الشرف . ودلال هي في النتيجة ضحية. لقد وجدت أن عليها ان تختار بين ان تكون جزّاراً يَذبح أو شاة تُذبح ، فاختارت دور الجلاد مقلّدة بذلك الرجل . وهي قد فقدت انوثتها ، واذا كانت قد كسبت

«الر جولة » العربية في أبشع وأحط مفاهيمها : « رجولة » القتل تحت ستار «الشرف»! .
ويبدو اننا نمر في مرحلة من الضروري التأكيد خلالها على انه لا علاقة بين الاسترجال والتحرر . فقضية تحرير المرأة ليست قضية تحويل المرأة إلى رجل . القضية هي تحويل المرأة إلى انسانة ، والرجل أيضاً إلى انسان . فالرجل نفسه ليس حراً في أكثر مجتمعاتنا العربية ، وهدفنا اذاً هو تحويل امرأة ورجل مستعبَدين إلى انسانين حرّين في مجتمع حر .

لا نريد من قضية تحرير المرأة ان تتحول إلى عملية زرع لحية وشاربين وعضلات ، ولا إلى حركة ببغائية لتقليد الرجل ، خصوصاً في ابشع ما يصدر عن السلوك « المذكر » في بلادنا : « جرائم الشرف » .

المطلوب ان تظل الانثى انثى . ذلك لا يعني طبعاً انثى بالمعنى التقليدي للكلمة (كائن سلبي) ، ولكن ذلك يعني عدم التنكر للطبيعة . و « جرائم الشرف » هي ضد الطبيعة وضد الانسانية ، وهي بقايا نظرة متخلفة « تشيىء » المرأة . اما تحرر المرأة فيعني كسر كل القيود التي تحول بينها وبين ممارستها لإنسانيتها ، ولا يحل المشكلة تقليد كائن آخر مستعبد أيضاً هو الرجل ...

المرأة هي ، من دون شك ، بروليتاريا البروليتاريا في المجتمع . وهي تقاسي من كل ما يعانيه الرجل في المجتمع العربي من قهر سياسي واجتماعي واقتصادي ، بالاضافة إلى وضعها البائس كأنثى . على انه ليس المطلوب مساواة المرأة بالرجل فحسب ، بل المطلب الأهم هو تحرير المرأة والرجل في مجتمع يستعبدهما معاً . فالعلاقة بين المرأة والرجل جدلية لا جامدة ، بمعنى ان وراء كل امرأة مسجونة رجلاً مكبوتاً ، ووراء كل مومس رجلاً بائساً يعاني من علاقة سطحية وغير انسانية .

وقد يكون المطلب الاولي (كتكتيك لا كاستراتيجية) المساواة بالرجل ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة تقليد مظهر الرجل أو تفاهات سلوكه .

(ومدام كوري لم تقم بعملية استئصال للثديين . المهم هو استئصال ذاكرة الخنوع ووهم التخلف النوعي . وانديرا غاندي لا تزال ترتدي الساري. فالمهم جوهر التحرر لا قشوره . وما جدوى ان ترتدي المرأة العربية ربطة عنق اذا كانت لا تزال محتفظة بخلخالها تحت البنطلون ؟ !)

تحرير المرأة كتكتيك يمكن أن يبدأ ، باعلان كل نساء القطر اللبناني الاضراب العام (كبداية) من أجل تعديل النصوص القانونية التي تعامل المرأة معاملة دونية ... ويظل الأهم هو تحرير الانسان العربي ، والمرأة بطبيعة موقعها كبروليتاريا البروليتاريا

في الشعوب العربية مؤهلة لتكون طليعة ثورة التحرر العربي ...

كثيرون يعتبرونني من المسؤولين عن تفجير طموح المرأة العربية وتشجيعها على ان تلغي نون التأنيث من سلوكها ، وتعيش حياتها دون خوف من المجتمع . فإلى اللواتي اعتبرنني ضوءاً أخضر في درب تحرر المرأة أقول : لا علاقة بين المناداة بتحرير المرأة والمناداة بإحراق بعض ثيابها الداخلية ...

تستطيع المرأة ان تكون متحررة وان يكون لها ثديان . الحمل وانجاب الاطفال ليسا ضد تحرر المرأة اذا تمّا في شروط انسانية دونما ارغام . مسموح للمرأة ان تحترم زوجها وتحبه وحتّى ان تقبله دون ان يشكّل ذلك اساءة إلى بنود تحرير المرأة (!) ...

انا اعتقد ان « الاسترجال » ليس مظهراً من مظاهر تحرير المرأة بل مظهراً من مظاهر عبودية المرأة لفكرة سطحية عن التحرر ...

المهم في التحرر ، التحرر الاقتصادي والتحرر من سلطة المجتمع وسطوته ... والنساء المسترجلات هن أكثر إقراراً — حتى من نساء الحريم — بسلطة المجتمع ، ودليل اقرارهن هو تقديمهن لمسرحية الاسترجال . وهكذا فان المرأة المسترجلة هي في جوهرها امرأة الحريم مع تغيير في بعض الديكور ...

ويا نساء العالم ... احببن ! فالرجل كائن جميل ، وهو بائس مثلنا ... وتضامنّ معه بدلاً من تقليده . فالمطلوب في علاقة المرأة والرجل التكامل لا التماثل ، والمطلوب المماثلة في الحقوق والواجبات كمواطنين ، ولكن ليس من الضروري ان تحلق المرأة ذقنها كل صباح لتؤكد لنفسها انها متحررة .

بالمناسبة ، قرأت للتو خبراً عن سبعة شبان ألقت القبض عليهم شرطة الآداب بعد ان ضُبطوا في شقة يرتدون الملابس النسائية الداخلية والخارجية ويتزينون بالماكياج والحلي والعقود ... فهل هذه طلائع « الثورة المضادة » ؟ ! .

١ / ٤ / ١٩٧٤

المطلوب تحرير المرأة من التحرر !

كثيرة في بلادنا هي الكتابات النسائية التي تحرّض المرأة على الثورة لانتزاع انسانيتها ، ولكن الخطأ الذي تسقط فيه أكثر هذه الكتابات هو انها تعتبر أن معركتها هي ضد الرجل ، لا ضد التخلف الاجتماعي العام .

أعتقد بأن هذا النوع من الكتابة كان مقبولاً قبل نصف قرن ، في بدايات سفور المرأة عن وجهها وقلبها . كان ممكناً في تلك المرحلة تصوير القضية على أنها ثورة حواء الجارية ضد آدم المستغِل .

اما الآن فيبدو أن القضية في حاجة إلى رؤية جديدة تخرج بها من مرحلتها الميتافيزيقية لتضعها في إطارها الطبقي والاجتماعي والتاريخي العربي ، أي في إطار أكثر وضوحاً ومصارحة ...

إن خلاص المرأة العربية المعاصرة لا يكمن في إعلان العصيان المدني على الرجل ورفض العمل المنزلي والحمل والولادة ، لسبب بسيط هو أن المأساة أوسع وأشمل . فالرجل العربي نفسه ليس جلاد المرأة بقدر ما هو ضحية الوضع الطبقي والاجتماعي الخاطىء في معظم أقطارنا ...

المرأة العربية تعاني من استلاب حرياتها الاقتصادية والفكرية والسياسية والجنسية، ولكن من قال ان الرجل العربي حر ؟ ! . من هنا أؤمن بأن هذه المرحلة تفرض على المرأة النضال من أجل حرياتها ضمن إطار نضال الانسان العربي ككل ضد قوى الاستلاب كلها، اذ لا يمكن لأي فرد (رجلاً كان أو امرأة) أن يكون حراً في مجتمع مستعبَد فاقد للعدالة .

ان الاقلية العربية الثرية التي تعتاش من بؤس الأكثرية ،ومصالحها مرتبطة بتخلّف الشعب العربي ، تحرص على إفساد غضبة المرأة وتحويلها في غير مجرى الثورة الحقيقية حيث يجب أن تصب . والأبواق الاعلامية المتعفنة لها مصلحة في تحويل أنظار المرأة عن الثورة داخل منظمة ثورية منظّمة إلى « الشجار » داخل البيت مع الزوج، وبالتالي

هدر طاقتين كان من المفروض اتحادهما ضد العدو الحقيقي الذي هو كل ما يكرّس تخلّف الاثنين ...

ان قضية المرأة العربية هي نفسها قضية الرجل العربي الثوري . فحواء وآدم العربيان المعاصران لا يعيشان في جنة تمنحهما « ترف الشجار » وانما يعيشان في جهنم أحداث هذه المنطقة ومآسيها وأخطارها ، وكل هدر جانبي للطاقات هو جريمة بحق النضال العربي ككل .

والمطلوب من الكاتبات المستقلات والاتحادات النسائية والجمعيات وكل التجمعات « النسوانية » إعادة النظر في موقع قضية المرأة من العصر والاحداث .

ليس الرجل فقط هو الذي ظلم المرأة، بل إنّ الاستعمار والتخلف والطبقية ظلمتهما معاً ... ومن الضروري أن تبدأ مرحلة التحالف الواعي بين المرأة والرجل ضد عدوّهما الحقيقي ، وان تعمل التجمعات النسائية ضمن هذا الاطار .

١٧ / ١٢ / ١٩٧٣

مدلول خطر لنجاح فيلمين

يبدو ان عصر السينما ذات الاخلاقيات التقليدية قد انتهى .

فقد اعتدنا ان نرى كل سارق أو قاتل في السينما يُعاقب ، ومهما أحبه الجمهور فسوف يُلقى به في النهاية إلى السجن ... وقد يُخففُ الحكم عليه ، أو يكافأ بحبيبة جميلة تنتظر خروجه من السجن ، ولكن لا بد (للعدالة) التقليدية من الاقتصاص منه من حيث المبدأ .

هذا الاسبوع شاهدت فيلمين تمردا على هذا الخط . **الأول** ، فيلم « الفرار » ــ ستيف ماكوين ، آلي ماكرو ــ الذي يلقى نجاحاً لا حد له . انه حكاية زوجين عاشقين شبه فقيرين يسرقان بنكاً وينجوان من البوليس ومن عصابة تطاردهما ويصلان بسلام إلى المكسيك مع الغنيمة طبعاً ، وينتهي الفيلم نهاية سعيدة ! .. ولعل الجمهور يخرج أكثر سعادة حتى من أبطال الفيلم الذين ربحوا ثروة صغيرة (نصف مليون دولار) ! .. لماذا ؟ وهل يكره الجمهور « العدالة الشرعية » إلى هذا الحد ؟ ..

هذا ما يبدو للوهلة الاولى .. ولكن الفيلم في حقيقته يمثل سارقين صغيرين (ستيف ماكوين وزوجته) سرقا من بنك هو أصلاً مؤسسة للسرقات الكبيرة ... وهكذا فالجمهور الذي تعب من « السارقين الكبار » الذين يحميهم القانون ، يتعاطف مع « السارقين الصغار » الذين هم أقرب إلى قلبه وواقعه ، ويشمت بـ« الكبار » الذين يجد مثيلاً لهم في حياته اليومية وفي واقعه الاجتماعي والسياسي ...

الفيلم الآخر الذي شاهدته هذا الاسبوع ضمن الخط نفسه (مما ينبشر بموجة أفلام من هذا النوع غير التقليدي) ... اسمه « اقتل شارلي فاريك » . والبطل في الفيلم يرتكب سرقة تقارب المليون دولار لكنه ينجو بنفسه من البوليس والعصابة التي تطارده ويربح المال أيضاً . وكما في فيلم « الفرار » ، المال الذي سرقه شارلي فاريك هو أصلاً « مال حرام » ويخص عصابة المافيا ومجموعة من المجرمين الكبار الذين تحميهم تغطية قانونية ،

أما هو ، الذي ينطلق البوليس خلفه والمافيا أيضاً ، فينجو بالغنيمة مشفوعاً بتهاني جمهور الصالة وفرحهم الكبير بنجاة « السارق الصغير » من « السارقين الكبار » ...

ان حماس الجمهور اللبناني لفيلم القرار (يعرض منذ ستة اسابيع وتنفد كل التذاكر منذ الصباح) له « دلالة » سارة بالنسبة لموزعي الشريط واصحابه، ولكن له « دلالة » غير سارة بالنسبة لمصاصي دم الشعب في هذا البلد ، المتمتعين برعاية القانون وتغطيته ، والذين يبرعون في تكديس ثرواتهم ورفع بناياتهم دون أي مأخذ قانوني عليهم .

ان تعاطف الناس مع « فقراء » الفيلم السارقين الصغار الخارجين على القانون ، وشماتتهم بـ « الحرامية الكبار» المستغلين لبنود القانون لن يتوقف عند حد الاقبال (غير المؤذي) على فيلم يشاهدونه دونما عنف ..

ان هذا النوع من الشعور والحماس يمكن في اللحظة المناسبة ان يتحول إلى انفجار يسمونه في كتب التاريخ « ثورة » أو أسماء اخرى كثيرة مشابهة ...

فليذهب مستغِلوّ الشعب لحضور هذا الفيلم ، ومطلوب منهم أن يستمتعوا به قليلاً ، وان يفكروا بعده كثيراً ! ..

٥ / ١٢ / ١٩٧٣

سهو ، أم تمهيد لصلح ؟

فيلم « الفتى ذو القلب المكسور » الذي يعرض حالياً في إحدى صالات السينما في بيروت ، قدم لنا في حفلة العرس اليهودي أغنية اسرائيلية فولكلورية أظن أن اسمهـــا « هاغانا » . فقد سمعت هذه الاغنية في كثير من حفلات السمر في لندن أيام دراستي ، وشاهدت أكثر من تشابك بالايدي بين رفـــاقي العرب وأفراد الفرق الموسيقية اليهودية التي تفاجىء الساهرين بعزفها ويطرب الاوروبيون (لشرقيتها) .

وظهر الاحد ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، حوالي الساعة ٥ بعد الظهر اذاعت محطة بيروت باللغة الاجنبية أغنية تبدأ الحانها بالمعزوفة الاسرائيلية الفولكلورية نفسها وتغنيها ايرين برتيبيه ! مما لا شك فيه أن أحداً لا يريد تعويد الأذن العربية على الألحان الفولكلورية الاسرائيلية تمهيداً « لصلح ثقافي » ، وأن الامر هو حتماً سهو ألفت اليه أنظار ادارة السينما ومديرية الاذاعة .

٧ / ١٠ / ١٩٧٤

أصوات الغناء ستكون عالية

٦ تشرين ليس مناسبة جامدة من تلك التي اعتدنا الاحتفال بها سنوياً في مواعيد محددة ... نصدر الاعداد الخاصة بها .. وننظم القصائد في مدحها .. ونستمع من الإذاعات الى الأناشيد والمدائح فيها ...

الاحتفال بـ ٦ تشرين يُستمد من روح ٦ تشرين نفسها ... انه بالتالي لا يمكن أن يكون مهرجاناً فحسب ، وإنما ممارسة ديناميكية مستمرة ... انه ليس احتفالا في يوم معيّن فحسب ، وانما هو سلوك نمارسه باستمرار في كل أيام السنة ...

٦ تشرين هو الخطوة الاولى الصحيحة في درب المئة الف ميل، درب التحرر والكرامة والفرح للجماهير العربية كلها .

ومن هنا فإن من واجب الأصوات التي سترتفع بهذه المناسبة أن تبتعد تماماً عن الخطابية اللفظية والمتاجرة بمشاعر الجماهير ، لتحل محلها لغة مباشرة موضوعية وصريحة في مواجهة الحقائق....

٦ تشرين ليس مناسبة انقضت وبقي نحت التماثيل لها وتنصيبها وثناً في حياتنا السياسية .

٦ تشرين روح عمل ، وروح تفاؤل . فليواجه كل منا ذاته وليصارحها : الى أي مدى تسرّبت روح ٦ تشرين الى الخلايا النفسية لوجوده ، والى أي مدى أثرت في سلوكه اليومي ومعايشاته ومواقعه الفكرية ؟ .

وإذا كنا قد سقطنا بعد ٥ حزيران في مناخ هزيمة مضخمة ، فمن الخطر أن نسقط اليوم أيضاً في مناخ نصر مضخم ...

٦ تشرين ليس انتصاراً ستاتيكياً جامداً ، وإنما هو روح ديناميكية تقع على الأقلام مسؤولية إبراز ضرورة استمراريتها وضرورة النظر اليها ضمن اطارها الحي كحلقة مضيئة في سلسلة المراحل التي لا بد أن تمر بها أمتنا العربية في دربها الى تحقيق

أهدافها الإنسانية العادلة ...

ومفهوم « التفاؤل » التشريني ، يجب ألا يتحول الى يقين طوباوي بالنصر ، بل من الضروري التأكيد على أن « التفاؤل » مرادف « للعمل » وإن الأمل هو « حالة من الوجود . إنه حيوية داخلية ، حيوية الفعالية ... والانتظار السلبي هو شكل مموّه لليأس والعجز » (إريك فروم) ... وهكذا فـ ٦ تشرين هو عيد العمل من أجل الأمل ، وليس للعمل مناسبات ولا أعياد لأنه ممارسة يومية حياتية ...

في ٦ تشرين يجب التحذير من سوء فهم حكاية الأمل والتفاؤل ... فالأمل السلبي هو اعتماد الإنسان على المستقبل بشكل مطلق . « فما من شيء يفترض حدوثه الآن ، وإنما بعد ذلك ، في اليوم التالي أو العام القادم وفي عالم آخر .. فوراء هذا الاعتقاد وثنية الـ « مستقبل » و « التاريخ» و « الأجيال القادمة » — (من ثورة الأمل لاريك فروم) . إن شيئاً لن يحدث إذا اكتفينا بـ ٦ تشرين ثم الاحتفالات السنوية به .

إن إرادة العمل لدينا وممارسته هي وحدها التي تمنحنا الحق بالتفاؤل .. وكما يقول مفكر عربي كبير (الإرادة إذن لا « الحلم » ، ولا « انتظار تحقق الحلم » ، هي الأساس الموضوعي لبناء المستقبل والتوجه نحو الأهداف القريبة والبعيدة) ...

لا أريد أن أبدو في كلمتي هذه كئيبة كعرّافات دلفي ، ولكنني أعرف أن أصوات الغناء ستكون عالية (كما كانت أصوات الندب في ٥ حزيران عالية) ، ولم يعد في حنجرتي غير صوت الصحو .

١٦ / ١٢ / ١٩٧٤

قراءة بيضاء

أغرب مجلة تلقيتها في حياتي مجلة اسمها ، كما يقول غلافها ، « الفجر » ، وكل صفحاتها بيضاء بيضاء لا نقطة فيها ولا سطر ولا لون ! ..

للوهلة الأولى خيّل الي أنها دعابة ، وأن هنالك ثرياً ما يحاول أن يعلن عن وجهة نظر ساخرة ولو بأسلوب باهظ التكاليف ، كأنه مثلاً يود أن يقول حين طبع مجلة بيضاء ! : « لم يبق ما يقال ! فما أرى ما نقول إلا مكروراً أو معاداً . »

أو : « في فمي ماء ! » .

أو : « السكوت من ذهب ! » .

أو : « اهترأت اللغة وما زال البؤس يحتل العالم ! » .

أو : « افتح الصفحات البيضاء وآقرأ ما في نفسك ! » .

أو : « كفّ عن قراءة الآخرين وواجه مواقفك أنت ! » .

أو أي فكرة أخرى يمكن أن تخطر ببالك إذا فتحت مجلتك ذات يوم ووجدت كل صفحاتها بيضاء تماماً ! .

قراءة أخرى لغلاف المجلة العجيبة تكشف أنها « تصدر عن المكتب الاقليمي للجنة الشرق الأوسط لشؤون المكفوفين » .

نظرة أخرى الى صفحاتها تجعلك تلحظ أنها ليست بيضاء من دون أي شيء تماماً . ففي الصفحات نتوءات ، وفيها حفر . وفهمت أنها مكتوبة بطريقة « برايل » . انها مجلة للمكفوفين ، وحواسنا نحن مكفوفة عن قراءتها .

أغمضت عيني وتحسست السطور بأصابعي ، وحاولت أن أقرأ ، فشعرت بالعجز التام ، كعجزك عن قراءة وجه إنسان غريب ! عجزت عن القراءة لأن أصابعي عمياء . فالحاسة التي تضيع لدى المكفوف تجد تعويضاً لها في تنشيط حواس أخرى في النفس والجسد .

هذه المجلة عمل إنساني عظيم سيدخل النور الى المكفوفين وينقذ طاقاتهم المعطّلة .

وفكرت في المئة والأربعين مليون عربي التائهين بين « الماء والماء » ، وأكثرهم مصاب بعمى الألوان السياسي ، والحول الفكري ، وازدواج الرؤية ! متى تصدر منشوراتهم الحقيقية ؟ وإذا صدرت فهل يسمح لها بحرية التجول أم أنها ستصطدم ، كالعادة ، بالضوء الأحمر للموانع التقليدية ؟ ! .

كلنا مكفوف ما دامت حرية الفكر شبه ممنوعة من التجول في العالم العربي !

متى يطلع الفجر الحقيقي ؟ ! .

* * *

١٨ / ٢ / ١٩٧٤

قراءة أولى في جريدة صباحية !

هل تعرفون ما هي أشد الأشياء إثارة للرعب والقلق في زمننا الرديء ؟

إنه جريدة الصباح !

تقرؤها فتحمل اليك دفعة واحدة بشاعة عالمنا المعاصر ... والذنب ليس ذنب الجريدة إلا بقدر ذنب المرآة في عكس صورة وجه بشع ! .

فجريدة الصباح تحاصرك وأنت لما تصحو بعد من نومك جيداً ، أي أنها تخترقك في لحظة من لحظات العري النفسي ، قبل أن تباشر بارتداء أقنعتك ، وقبل أن تلفّ حولك دروع همومك اليومية الصغيرة ، تلك الهموم الشخصية التي تتعبنا لكنها تقينا فظاعة الهموم الإنسانية الأكبر والأشمل ... كأن الزواج وإنجاب الأولاد والروتين ، كل هذه المشاغل الصغيرة هي لقاح ضد الوعي بالأوبئة المروعة التي تحصد إنسانية عالمنا المعاصر ...

* * *

تعالوا نقرأ جريدة الصباح معاً ... إن مجرد تأمل الصور يكفي لتبدأ يوماً تاعساً — « تاعساً » ليست هي العبارة — لنقل يوماً مليئاً بالحقد الإيجابي أي ، الرغبة في التبديل ...

* * *

في الصفحة الأولى صور رؤوس مقطوعة ... لا رؤوس خرفان ، بل رؤوس شبان كانوا قبل أيام ينبضون حياةً وجمالاً مثل جياد برية تركض في سهول الوجود ..

الخناجر تقطر دماً ... والرؤوس المربوطة الى العصي تقطر دماً ... والصورة ليست تاريخية عن غزوات هولاكو وفظاعات تيمورلنك، وإنما هي صورة «معاصرة»، صورة من صور الحرب في كمبوديا ... الرؤوس المقطوعة هي طبعاً رؤوس الثوار ... والقتل تم على الطريقة الأميركية وبإشراف خبرائها وزبانيتها ، وخناجرها وأسلحتها ...

ومع ذلك لا تخجل السينما الأميركية من عرض الأفلام التي تصوّر « وحشية » الهنود الحمر لمجرد انهم كانوا يسلخون فروة رأس « العدو » مكتفين بها على سبيل « السوفينير » أي التذكار ... أما أميركا التي رفعت علمها على القمر دلالة على ربح سباق الحضارة ، (ربما بكت يومها المجرة بدموع من ضوء حزين) ، فقد فضلت العودة الى التراث ، وقامت « برينيسانس » بإحياء أساليب هولاكو لتثبت انها حريصة وأمينة على التاريخ ، ومارست ذلك بصفة عملية في فيتنام ، باسلوب تعانق فيه « تراث الماضي » وأساليب العلم المتطور والتكنولوجيا ، ويبدو انها نقلت ذلك كله اليوم لتتابع نشاطها في كمبوديا ...

إنك حين ترى الرؤوس المقطّعة المتدلية من العصي كثمرة الخطيئة ، تدهشك الإعلانات عن الطائرات والكومبيوترات في الصحيفة نفسها ، إعلانات تدل كلها على اننا في القرن العشرين ، فتصاب بالذهول ، والقرف ، والحقد المضيء . إن كل ثائر لا يمكن أن يكون لامبالياً بمصير الثوار في كل مكان ... وتقلب الصفحة !

* * *

هذه صورة حسن البرقاوي ، شيخ فلسطيني عمره ١٠٣ سنوات . وجهه مليء بالقهر ، وتجاعيده حكاية عذاب طويلة ، وفي يده عصاه وخبر عن طرد السلطات الاسرائيلية له من بيته ...

الخبر لم يثر إشفاقي على الشيخ ، بل على الدولة « الاسرائيلية » .. فقد يكون سهلاً إخراج رجل عجوز في الثالثة بعد المئة من عمره ، ولكن عمر الفلسطيني في فلسطين ليس ١٠٣ أعوام فقط . عمره هو عمر التاريخ .

وهي لن تقدر أبداً على طرد هذا الوجود . إن معركة « اسرائيل » مع العرب ليست مجرد معركة مع أشخاص وبيوت وإنما هي أيضاً معركة مع التاريخ كله .

و «اسرائيل» هي كمن يحاول إفراغ بحر التاريخ والحقيقة بصدَفة صغيرة اسمها « الأمر الواقع » !

ولكن الفجيعة الحقيقية هي حين يصير « الأمر الواقع » أقوى من « الحقيقة » ، وحين تصير الصدَفة أكبر من البحر . وإذا استمرّينا في ما نحن عليه ، فهل يمكن للصدَفة أن تصير أكبر من البحر ؟ ..

لنقلب الصفحة ! ..

* * *

هذه صورة تمثل بعض الممثلات والنساء المتهمات بما يدعى بفضيحة الرقيق الأبيض ، وبممارسة أقدم مهنة في التاريخ ! ..

تشعر باللامبالاة ! ..

كلنا صرنا نعرف أن العهر لا يمارس في هذا المجال وحده ، وأن عالمنا العربي غارق في فضائح العهر الفكري والسياسي والاجتماعي ...

تشعر بالغضب ! ..

لم يعد مهمّاً في عالمنا العربي من نام في منزل من، الأهم هو أن لا تُسحب الأرض من تحت المنازل كلها . و«إسرائيل»، ومن ورائها أميركا، جاهدة في هذا المجال، وإذا ظللنا لاهين عن هذه الحقيقة المروعة ، نائمين على وسائد السلام ، سيأتي يوم يصير فيه الشعب العربي بأكمله رقيقاً أبيض .

تشعر بالأسف ! ..

فلنقلب الصفحة ! ..

* * *

نقلبها ؟

لا ...

ذلك يكفي لهذا الصباح !

٤ / ٣ / ١٩٧٤

من خطف الطائرات إلى خطف اللوحات

الفتاة جميلة وشفافة . تعزف على الغيتار منذ زمن بعيد . تعزف باستمرار ليلَ نهار منذ القرن السابع عشر . لا تتعب . لا تنام . شاهدتها ذات يوم في متحف « كينوود » في بريطانيا . أنصت الى عزفها ومن يومها لم أنسها ..

تعزف منذ مئات السنين ، منذ رسمها الفنان الهولندي جان فيرمير وأبدع في تصويرها بلوحته الشهيرة « عازفة الغيتار » التي تعتبر من روائع الفن العالمي ويقدر ثمنها اليوم بملايين الدولارات .

ومنذ أيام سُرقت اللوحة .

اختفت من ركنها في المتحف وصمت العزف . أدهشني خبر السرقة لأن بيع مثل هذه اللوحات مستحيل بسبب شهرتها الفائقة ، وهكذا فان سارقها لن يحظى بأي ربح مادي . وفكرت : تراه مهووساً ، عشق اللوحة فقرر اختطافها وسجنها والاستئثار بعزف الجميلة وحده من دون الناس جميعاً ؟ ! . تراه جامع تحف مجنوناً قرر أن يقيم لنفسه سراً متحفه الخاص ؟ وأين ؟ في غواصة مثلاً ؟ أم تراه يتولى تهريبها الى القمر حيث الزحام أقل ؟

وشعرت بالغضب من السارق . وقررت انه رجل مؤذٍ لأنه لا يفرّق بين عاطفتيّ « الحب » و « حب الامتلاك » . إن التطابق بين « الحب » و « حب الامتلاك » قد يكون مقبولاً في حالات الحب الفردية (بين رجل وامرأة مثلاً إذا تم بقبول الطرفين) ، أما بين رجل ولوحة فنية فتلك أنانية لا تطاق . تصوروا مثلاً لو أن كلاً منا أراد أن يمتلك كل ما يحب في هذا الكون المزروع بالجمال والسحر ، وأن يحبسه ويحرم الباقين منه ! انا مثلاً أحب الشمس والنجوم والبحر والأطفال والغابات والمطر ، فماذا يتبقى للدنيا لو سرقتها وهربت بها الى كوكب آخر مثلاً ؟ ! وأية كارثة تكون لو أن كل سائح يقوم بسرقة أية لوحة تفتنه أو تمثال يحبه ؟ .. وماذا

لو أقدم الميلياردير أوناسيس ، مثلاً ، على سرقة أبو الهول ، ولو قام كل معجب بسرقة ما يحب وفقاً لامكاناته المادية والجسدية ؟ ماذا يتبقى في متاحف العالم غير لافتات في موضع اللوحات تقول مثلاً : « هنا كانت لوحة فان غوخ : الحصاد . تمّت سرقتها يوم كذا ... يرجح أن السارق هو فلان واليكم العنوان لمراجعته » ! أليست المتاحف في النتيجة أول تجسيد عملي جماعي لاشتراكية الحب الذي لا تفسده الأنانية أو حب الاستئثار ؟ .. أليست المتاحف أول تعبير حقيقي في التاريخ للفصل بين « الحب السامي » و « حب الامتلاك » ؟ ..

هذا ما أحسسته للوهلة الأولى ... وتخيّلت سارق اللوحة في قبو بيته يتأملها وينصت الى عزف جميلتها مستأثراً بها حارماً الدنيا من إبداع راسمها . وحقدت عليه ! ..

ثم فوجئت بالسر الكامن وراء السرقة ! فقد قرأت أمس في صحيفة « الغارديان » أنها تلقت مخابرة هاتفية من سارق اللوحة . إنه يطالب الحكومة البريطانية بتوزيع ما يوازي مليون دولار وربع من الأغذية على الفقراء في وطنه (جزيرة غرينادا) مقابل إعادة اللوحة . فجزيرة غرينادا كانت تابعة لبريطانيا ، وقد استقلت مؤخراً بعد أن خلّف فيها الاستعمار ما يخلّفه عادة في كل وطن من بؤس وجوع ومرض ! .

إذن نحن أمام ثائر من أجل وطنه لا أمام سارق عادي .

لقد اختطف فتاة اللوحة الغالية على قلب أمها ، بريطانيا ، وهو مستعد لإطلاق سراحها مقابل فدية ، والفدية هي اطعام الجياع في بلده . وانه لم يكن يريد الاستماع الى عزف قيثارة اللوحة ، وإنما كان يستمع الى صراخ الأطفال الجياع في وطنه حين قام باختطافها .

انها لفكرة مثيرة ! ..

الانتقال من خطف الطائرات الى خطف اللوحات ! ..

الانتقال من خطف الفتيات البشريات الى اختطاف الفتيات الخالدات في اللوحات . الانتقال من اختطاف الجسد الى اختطاف القيمة الفنية . الانتقال من حرمان أسرة واحدة من ابنها أو ابنتها الى اختطاف ابنة روحية للشعب البريطاني الذي يجده الخاطف مسؤولاً عن جوع كل ابناء شعبه ! فإن دُفعت الفدية أعيدت فتاة اللوحة سالمةً مع قيثارتها وألحانها ، وإن لا ، تم قتلها وإبادتها كما يتم قتل أي مخطوف ! ذلك الثائر من غرينادا طوّر عملية الخطف بذكاء . فبدلاً من خطف فتاة خطف لوحة

هي ابنة الوطن كله ، ثم أن خطف اللوحة أكثر سهولة لأن « فتاة الغيتار » لن تقاوم خاطفها ولن تصرخ ولن تخدشه بأظافرها ، وهو ليس في حاجة الى كم فمها أو تخديرها ولن يضطر الى حراستها لأنها ستظل في مكانها داخل إطار اللوحة تغني وتعزف بهدوء وصمت ! وحتى إذا لم تدفع الفدية ، فإن عملية قتلها ستكون أكثر سهولة لأنها لن تبكي أو تتوسل أو تقاوم وانما ستموت بهدوء ! (عملية قتلها أسهل ؟ لا أدري !) .

هل اغتيال اعمال بيتهوفن كلها مثلاً ، أي الرمي بها الى النار نهائياً ، أسهل من عملية اغتيال انسان ؟ ! .

لا أدري ! ..

كل ما أدريه هو أن هذا العالم المليء بالظلم والقهر لن يعرف السلام إذا لم تتحقق فيه العدالة . وإن الثوار لن يعدموا وسيلة لاستنزاف العالم (المتمدن ، الذي مدنيته قناع مزيف) .

وما دام الظلم يملأ العالم والشعوب المضطهدة تقاسي ، فإن أحداً لن يجد سلاماً أو ملجأ أو مفراً ، خارج اللوحات أو داخلها ، فكلنا مسؤول ... وكلنا داخل اللعبة .

١٥ / ٤ / ١٩٧٤

.. وفي صدري وطن يبكي !

تعذيب أن تمرض ، أن تدخل المستشفى ... لكن التعذيب الأكبر هو حين تدخل المستشفى دون أن تكون مريضاً ، كما حدث لي هذا الصباح .

رافقت صديقي المريض لالتقاط بعض الصور الشعاعية لرئتيه وجهازه الهضمي وبقية أجهزة جسده التي أعلنت « العصيان » مؤخراً ! ..

رافقته لأواسيه ، لأسليه ، لأغسله بالمحبة التي تجعل كل ما في الحياة أقل إيلاماً وأقرب الى النكتة منها الى الدراما .

وسهى عني وعنه انه لن يسمح لي بالدخول معه الى غرفة التصوير المظلمة ! ..

وهكذا ، كان لا بد من جلوسي لمدة ساعة ونصف أنتظره في دهليز واسع معد للانتظار ، يقع مقابل مكتب موظفي ذلك القسم ، ويتيح لي مشاهدة قافلة معذبي الأرض القادمين ذلك الصباح ، ورصد أوجاعهم ... وشعرت انني متفرجة في « جحيم دانتي » وأنا أشاهد عشرات الوجوه الذابلة المتألمة ، وقفز أمام عيني أطفال مشوهو السيقان جيء بهم تمهيداً لتصليح عظامهم . وزحفت على البلاط العاري أمامي محفة تمدد فوقها رجل مخدر ، وكان لعجلاتها صوت صرخة الاستغاثة التي عجزت حنجرة المخدر عن إطلاقها ، وبدا لي وجهه لوحة عن الألم البشري الأزلي أمام المرض ...

كل ذلك كان يمكن احتماله لولا مشاهد الفقر والإذلال . بدوي وبدوية جاءا ، أحدهما مريض أو كلاهما . لم يكن الإنسان في حاجة الى أكثر من نظرة ليعرف انهما فقيران ومريضان . أمسكا بأوراق طلب التصوير ووقفا امام المكتب مصرين على عدم الدفع لأنهما لا يملكان نقوداً . الموظف قال لهما بتهذيب مستورد بارد : « الدفع على الصندوق . نحن لا علاقة لنا بالدفع . » قالها بقسوة . وأصر الفقيران على التصوير مجاناً ، وكانا على حق. وأصر الموظف على أنه لا يستطيع السماح بذلك، وكان هو

أيضاً على حق ـــ هو ، لا مؤسسته ـــ وكان يفسر لهما بحدة قوانين المستشفيات ، وكانا يمسكان بالأوراق الرسمية « بالمقلوب » لأنهما طبعاً لا يعرفان قراءتها ولا يعرفان «كومبينات» المسؤولين والمستشفيات. فكل ما يعرفانه هو انهما يتألمان،وأن ذلك يحول دون أيديهما الخشنة والعمل ، وانهما لا يستطيعان الموت جوعاً دون أن يطلقا ولو صرخة احتجاج واحدة ... المهم ، لا أدري كيف تم « تصريفهما » كي لا يخدشا عيون القادرين على الدفع . ولم يكادا يختفيان ، ودخان لفافتي يستقر باتقان في رئتي ، حتى بدا لعيني مشهد آخر صامت لكنه أشد تعذيباً . ربما لأنه صامت مر أمام عيني كالكوابيس المخنوقة الانتحاب . زوجان وطفل مشوه الساقين ، (ربما ولد كذلك ، وربمـــا صنع الفقر وسوء التغذيـــة ذلك) ... كان بؤس الأسرة واضحـــاً ، وصامتاً . وقف الأب امام الصندوق صاغراً ، واخرج من صرة مبلغاً كبيراً بالنسبة الى فقير مثله ، ودفع المبلغ « مكسور الخاطر » ، ثم التفت الى زوجته وفي عينيه نظرة قرأتها في الحال « لن يكون في وسعنا أن نأكل بقية هذا الشهر ! » دفعا وسارا بابنهما المشوه ، وكانا هيكلين مهترئين من الرماد لن يدهشك سقوطهما فجأة على الأرض كومتين لم يبق فيهما ما يحترق !

وخنقني البؤس .

حين تكون مريضاً ، تسقط في بئر أوجاعك الذاتية ، تتلهى بها فتعزلك وتشغلك عما حولك من آلام . حين لا تكون مريضاً ، تكون حواسك كلها متنبهة ومعافاة ، وتصير معرضاً لالتقاط كهارب البؤس البشري حولك ، وما أكثرها ! ..

تلك الاسرة الفقيرة البائسة ، التي تحركت أمامي الساعة الثامنة والربع في دهليز المستشفى ، ليست مكونة من ثلاثة أشخاص ... انها مكونة من ملايين المعذبين العرب في لبنان وغيره ... اسرة من ملايين الكادحين والطيبين والبسطاء الذين يسحلهم المرض دونما ضمانات صحية ودونما أية مبالاة على الصعيد الرسمي ! ..

أحسست بكراهية حقيقية لأكثر رجال السياسة في لبنان،الذين يحترفون المهاترات والمزايدات والحرتقات لأجل مصالحهم الخاصة ، ويمارسون الرقص في حفلات المجتمع (تجدون صورهم في الصفحات الخاصة بذلك) وعلى حبال صفقاتهم باسم الشعب المسكين ، وهم لا يعرفون عنه شيئاً ! ... وحتى حين يمرضون ، فان أحداً منهم ليس مضطراً الى الجلوس في غرفة انتظار . وإذا فعل ، فان إدارة المستشفى قد خصصت لهم غرفة انتظار خاصة في مكان بارز (تسللت اليها ، فوجدتها أنيقة

المقاعد والرياش ، ومزودة بباب كي يتم اغلاقه بينهم وبين مناظر البؤس في الخارج).
أتساءل : هل يعرف حكام لبنان كيف يعيش الشعب ؟ أعني ، كيف يعيش الناس حقــاً ؟ وكيف يعرفون ، والانفصام بينهم وبين أبناء الشعب بلا حدود ؟ ! .
لطبقة الحكام مجتمعاتهم المغلقة مثل (المحافل السرية الشريرة في العصور الوسطى) . إنهم يتحركون داخلها وهم لا يعرفون أي شيء عن الشعب. وحتى شوارعهم هي غير شوارعنا إذ تتقدم سياراتهم موتوسيكلات الشرطة لتجنبهم مأساة السير عندنا ، ولهم متزلفوهم الذين يرسمون لهم صورة غير حقيقية عما يدور خارج غرفهم المخملية ... وليس لديهم الحس بالمسؤولية الذي كان لدى خلفاء العرب أيام مجد العرب ، أولئك الذين كانوا يتنكرون ويندسون بين صفوف الشعب ليعرفوا حقيقة بؤسه عن كثب ... كان الحاكم فيما مضى يتجسس لمصلحة الشعب ، واليوم صار الحــاكم يتجسس ضد الشعب ، وصارت له أجهزة هائلة ترصد حركات الرفض الشعبي لضربها بدلاً من إزالة أسباب الرفض والنقمة... أليس مروعاً انه لا يوجد في لبنان، وطن «الاشعاع» ، أي ضمان صحي حقيقي ، وليس فيه غير مستقبل مظلم مروع ينتظر كل مواطن شريف كادح ؟ ! . ألا ينطبق هذا الكلام على الكادحين في أكثر الأقطار العربية ؟ ..
إن « جراثيم المرض » التي أوجدتها الطبيعة تفتك بنا أقل من فتك « جراثيم الاهمال » التي تتكاثر بفضل همة أكثر مسؤولينا الفاقدين كل شعور بالمسؤولية ... ان الهاوية بين السلطة والشعوب العربية قائمة في أكثر من بلد عربي، والتاريخ يقول لنا ان هذه الهاوية بالذات هي دوماً مصير الحاكم الذي لا يعرف كيف يلتحم بالشعب ويكون تعبيراً حقيقياً عنه وانبثاقاً عفوياً من تربته .

هذه الأفكار كلها انفجرت في رأسي ، وأحسست بالغثيان . حين تمرض تتألم لأجل نفسك وحين لا تكون مريضاً تتألم فتمرض بالجميع ! حين خرج صديقي من غرفة التصوير بالأشعة وجدني في مقعدي شاحبة ، وفي صدري تنهدات كل المعذبين والمقهورين امام المرض حين يتحالف مع الفقر ...

وحينما غادرنا المستشفى كنت أبدو أنا المريضة ، وصديقي في حال أفضل ، لأن رجل المصعد تأملنا قليلاً ثم اختارني أنا ليقول لي : سلامتك يا مدام (على اعتبار انني أنا المريضة) ! ..

وفعلاً كنت مريضة بالحياة . مريضة بفظاعة ما يدور . ولو أدخلوني غرفة الأشعة والتقطوا صورة لصدري لوجدوا فيه وطناً يبكي ! .

١٩٧٤ / ٩ / ٣٠

أما من عينين جديدتين تنبضان احتجاجاً ؟!

ليل وشريط مسجل لأغانٍ عربية مختلفة ، وبعض أصدقائي الأجانب ينصتون الى موسيقانا الحزينة .

طلب مني أحدهم ترجمة ما يقوله المطرب العاطفي . ترجمت له « بسبع أمواس قلبي قطعته » .

قال ساخراً : وهل الحبيب عندكم تمساح ؟

ترجمت المزيد : « ويلي من حبهم ويلي » ...

قال : وهل الحبيب المركيز دو ساد ؟ ..

ترجمت : « نار يا حبيبي نار » .

قال : إرهابي ونيروني أيضاً ! .. ترجمت المزيد . سألوني : لماذا الحب لديكم قمعي وبائس ونواحي وسادي و .. و ...

قلت لهم : الشريط الذي سمعتموه لا يمثلنا تماماً .

ثم ان الحب لديكم هو أحياناً مشبع بالنواح والسلبية والخذلان على طريقة « شيرلي باسي » الندابة « أنا التي لا أملك شيئاً .. أنا التي لا أملك أحداً .. أعبدك...» الى آخر المناحة ...

قالوا : حسناً . اسمعينا نماذج من «أغنية الاحتجاج» Protest Song لديكم .

قلت : لا شريط الآن لدي .

* * *

ولم أقل لهم ان أغنية الاحتجاج غير موجودة في وطننا العربي — حتى اشعار آخر — وان هذه الرقعة من الأرض الممدودة بجسدها من المحيط الى الخليج تعاني مخاض الثورة ، لا تصدر عنها أغنية احتجاج حقيقية واحدة ...

الوطن العربي في زلزال ، والمطرب العربي ما يزال يكرر أغاني عصور الانحطاط

ومعانيها ، بل وما تزال أفكاره عن الحياة موروثة من مسرحيات أواخر القرن الثامن عشر (موسيقار الشرق عبد الوهاب مثلاً صرح دون أن يرف له جفن « إن الرجل يفني نفسه من أجل قضية، أما المرأة فمن أجل فستان» . طبعاً ليس من المطلوب من الفنان أن يكون منظّراً ايديولوجياً ، لكنه مطالب بحد أدنى من الوعي الجماهيري والفكري والمعاصرة خصوصاً إذا كان قد نال قبلها باسبوع وسام دولة ثورية اشتراكية من مبادئها الأولى تنظيم المرأة العاملة وتهيئتها للنضال القومي ، والمرأة فيها عضو فعال على المستوى الحزبي والسياسي والعملي) ..

أيها العرب ، أين أغنية الاحتجاج ؟ ..

الاحتجاج يفور في دم الجيل العربي الصاعد ... الاحتجاج كهارب يطلقها من صوته ومشيته ، ومع ذلك فالأغنية العربية ما تزال تعيش مرحلة الجواري والخصيان ...

* * *

يغني عامل منجم فحم عندهم منذ أوائل الخمسينات :

(١٦ طن كل يوم ، وماذا أجني ؟ أكبر يوماً ، وديوني تكبر . قديس بطرس لا تناديني ، فأنا مدين بروحي لمحاسب المؤسسة !) ...

* * *

تغني إحداهن من عندهم :

(ذات صباح شتائي ، صديق وأنا ، ذهبنا بالسيارة ، نتنزه خارج العاصمة ، وكنت سعيدة لأنني أحيا) ...

هكذا ، صرخة احتجاج ناعمة نفاذة ضد أن نعيش دون أن نحيا ، صرخة ضد تبلد حواس الراكضين خلف (المجد الاجتماعي) ...

* * *

سيدتي رابندفيل .
لمَ شفتاك باردتان هكذا ؟..
سيدتي رابندفيل .
لماذا تتنفسين ببطء هكذا ؟..
الى أن يقول :
وزهرتنا لن تذبل أبداً ...

المطرب هنا (كاتس ستيفنس) يغني حبيبته الميتة دون أن يبكيها .. إنها أغنية

احتجاج على النواح التقليدي في مواجهة الموت ... إنه يقول لنا ببساطة : ليس المهم الحبيب بالذات ، أي نظرية « أنت وبس اللي حبيبي » عند العرب ، المهم هو أن لا يفقد الإنسان طاقاته على الحب ، فالناس عابرون ، والعشاق يتبدلون ، المهم هو أن نحب حقاً وباستمرار ...

* * *

يغني مارفن جاي محتجاً على المجتمع الاستهلاكي الآلي :

(أريد أن أسأل سؤالاً . أليس هنالك من يبالي حقاً ، بانقاذ عالم بائس ؟ سيأتي يوم تنسى فيه الأرض الغناء . والأزهار لن تكبر . الأجراس لن تقرع ... يا له من عار .. يا لأسلوبنا المخزي في الحياة ... عش حقاً . عش لأجل الحياة ودع غيرك يحيا .. الى آخره ..) .

* * *

يصرخ مارفن جاي محتجاً على حرب فيتنام :

(لا حاجة بنا لتصعيد الحرب. الحب وحده يستطيع هزيمة الكراهية. لا تعاقبني بوحشية . تعال ، حاورني لتفهم ما يدور . من هم أولئك الذين يدينوننا ، لمجرد أن شعرنا طويل ؟) .

* * *

ولكن ، لماذا سرد النماذج وهي لا تنتهي ، وفي أميركا وحدها أكثر من الف « مطرب احتجاج » غير نجومهم الذين نسمع بهم (بوب ديلان . مارفن جاي . ماريان ماكيبسا .) ومغموروهم أفضل من مشاهيرهم (ربما كما عندنا وكما في كل مكان !) ... ومن الطبيعي أن ينبع احتجاجهم من واقع مشكلاتهم وحياتهم وبالتالي فان استيراد « أغنية الاحتجاج » غير ممكن إلا جزئياً ... ولكن استلهامها أكثر من ضرورة ... وتجب ملاحظة ان أغنية الاحتجاج ليست مجرد الفاظ شعرية غاضبة ، هنالك صوت المغني الغاضب وهو غالباً هادىء النبرة حنونها ، وهنالك الموسيقى الجديدة وولادتها منوطة بولادة أفكار جديدة وحاجات جديدة ...

أي أن أغنية الاحتجاج هي ثورة في المضمون والشكل معاً . انك لا تستطيع أن تلصق الفاظ أغنية احتجاج على لحن ما إذا كان اللحن نفسه غير جديد وليس في طريقة ادائه نبرة الاحتجاج وانما هو مجرد امتداد لنواح سلفي . أغنية الاحتجاج هي ثورة متكاملة في المضمون والشكل ونبرة المغني وحتى حركات جسده ... أين هي في

وطننا الممتلىء قرفاً واحتجاجاً ؟ ..

* * *

في وطننا العربي وعي « بأغنية الاحتجاج » وشبه بدايات ...

لكنها ما تزال صرخات افرادية في مستنقع التفاهات الذي تعوم فيه الأغنية العربية ...

* * *

حتى الجيل الجديد من المطربين الناشئين يتم افساده قبل أن يتفتح ...

هدف المطرب الناشىء : الخلافة ..

خلافة أم كلثوم . خلافة عبد الحليم . خلافة عبد الوهاب . من قال اننا بحاجة لخليفة لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش أوسواهم؟.. لقد جاؤوا وأدوا رسالتهم مشكورين من عصرهم وانتهينا ...

اننا بحاجة الى صرخة جديدة ...

الى صوت جديد . رؤيا جديدة . المطربة الجامعية لدينا تغني ما تغنيه الأمية بسبب سقوطها في فخ (الخلافة) الفنية لدينا ...

لماذا كل فنان ناشىء يريد أن يخلف فناناً آخر ؟ ألا يريد أحد أن يكون نفسه ؟ ألا يريد أحد أن يكون جديداً ؟ أليس هنالك من يحس بالحاجات الجديدة لمجتمعنا ، بالصرخات العصرية والتطلعات الشعبية الجديدة ...

لماذا لا نقرأ تصريحاً لمطربة جديدة ترفض فيها أن تكون خليفة أحد ، وتصر على أن تكوّن عصرها ونفسها وشخصيتها ؟ .

لماذا الكل ساقط تحت سطوة الأسماء القديمة وبريق النجوم ...

أما من عينين جديدتين لمطرب شاب يبصر نفسه ويصرخ أنا ...

ويرفض ويرفض ويحتج ...

يحتج يحتج يحتج ...

١٩٧٤ / ١٢ / ٣٠

حذار من السياحة فوق الجرح العربي !

الثوار الفلسطينيون الذين أطلقوا النار في القدس على باص السياح الأميركيين وجرحوا فتاة أو أكثر ليسوا غير عادلين . كل ما فعلوه هو تذكير العالم ببداهة يكاد ينساها الفرد الأميركي ، ألا وهي ان السياحة على فوهة بركان ليست مأمونة العواقب ، وان القدس لم تهوّد ولم تدجن ولم ... ولن ... وأن البركان لا يزال يغلي ... وأن السياحة فوق الجرح العربي لن تكون أبداً نزهة الى شلالات نياجارا بل تورط في الدخول تحت شلال الدم والنار العربي ...

سيقولون : ما ذنب السياح الأبرياء ؟ ! . أقول لكم : في هذا العالم الملوث لا أحد يستطيع أن يدّعي البراءة . لا أحد يستطيع أن يكون غير مسؤول عما يدور في هذا العالم المزدحم بالبؤس ، لا أحد يستطيع أن يدّعي أنه لم يكن يدري . حتّى الجهل بأنه متواطىء في الجريمة جريمة يجب عقابه عليها . في أرض محتلة بالظلم والقهر ، كفلسطين ، لا أحد يستطيع أن يكون سائحاً ولو شرّفنا بقدومه من ولاية فلوريدا في أميركا حاملاً جواز سفر من أقوى دول العالم (حالياً). ان مجرد التفكير في السياحة في أرض أهلها محرومون من الحياة فيها هي جريمة . (يقول لابروبير في كتابه «الطبائع» : « عار أن نكون سعداء أمام بؤس الآخرين ! ») .

وأقول : جريمة ألا نبالي ببؤس الآخرين ، خصوصاً حينما نكون نحن أول المسؤولين عنه ... والشعب الأميركي مسؤول عن البؤس الفلسطيني . فمن أمواله التي يدفعها ضرائب ، يتم شراء أسلحة الدمار وتزويد الصهيونية بها لإبادة الشعب الفلسطيني . وإذا كان المكلف الأميركي يجهل ذلك فمن الضروري إبلاغه هذه الحقيقة بأي وسيلة وأي ثمن كي يحاسب مسؤوليه على ضوئها أو يشاركهم الجريمة ودفع الثمن أيضاً ! ..

سيقولون : أين « العدالة » في اطلاق النار على باص للسياح ؟ ! .

أقول لكم : لماذا يكون مطلوباً من الفلسطيني وحده أن يموت بصمت من أجل تحقيق « العدالة الشعرية » و« العدالة المطلقة » ؟ .. هل كان « عدلاً » أن يُطرد من أرضه ويشرد ويعذب ويقهر؟.. لماذا يكون مطلوباً منه وحده أن يكون «عادلاً» بعد أن مارس عليه العالم أقصى ظلم ممكن طيلة ما يقارب نصف قرن ؟ .. أليس من حق الفلسطيني أن يبلغ الشعب الأميركي ــ الذي باسمه يمارس مسؤولوه انحيازهم الاجرامي نحو الصهيونية ــ حقيقة ما يدور ، ولو كتب رسالته بالنار على مشط قدم تلك السائحة الجريح الراقدة في المستشفى الآن ؟ فربما كانت الرصاصة المرصودة لقلب الفدائي ، الذي أطلق النار على الباص السياحي الأميركي ، مدفوع ثمنها من الضريبة التي تقدمها هذه الفتاة نفسها لحكومتها المنحازة للصهيونية ، ومن الواجب إذن ابلاغها ذلك ولو برسالة من نار على جسدها ! فتلك هي اللغة الوحيدة المتبقية التي فرضها العالم المتوحش على الفلسطيني المناضل . وإن عالماً « عدالته » احراقنا باغصان الزيتون لا يستحق منا غير « عدالة » لغة القنبلة ! ..

١ / ٤ / ١٩٧٤

القدس ، لا أورشليم

بينما تنام أقلية على وسائد السلم المزعوم مع «اسرائيل»، دون أن تدري أن وسائد السلم غير العادل محشوة أبداً بالمتفجرات التي لا بد ان تفجرها الشعوب بكل من يغفو فوقها ، وبينما بدأ شخير الخدر عن جوهر القضية الفلسطينية تتردد أصداؤه في بعض أنحاء الوطن العربي ، مقطعاً بهذيان عن « سلم » هو في جوهره انحسار عن روح ٦ أكتوبر الثورية ، لا يزال القلب العربي يلتهب ...

لا تزال الاشتباكات على حدودنا المتاخمة لـ «اسرائيل» تدور... ليست حرباً لكنها مثل فوهة البركان الملتهب الذي ينم عما في جوفه من حمم ونيران مضغوطة وخبيئة ...

الاشتباكات اليومية هي إيقاع جو الحرب الذي لا يمكن أن يتوقف دون التوصل الى سلام عادل ترضاه الشعوب العربية ...

* * *

الى الصديقة التي لا أجرؤ على ذكر اسمها خوفاً عليها من سلطات الاحتلال في فلسطين ، الى التي كانت رفيقتي في الجامعة الأميركية ثم عادت الى القدس ، وسقطت في فخ الاحتلال حين سقطت القدس ... وصلتني رسالتك عن طريق خالك في اسبانيا . وقد سافرت أكثر من مرة، وكتبت لك أكثر من مرة، ولكنني عجزت عن ايداع رسالتي اليك في صندوق البريد ... اغفري لي ، فيدي ما زالت عاجزة عن كتابة عنوانك على الظرف ! .

يدي ما زالت عاجزة عن كتابة عبارة : « أورشليم — إسرائيل » بدلاً من : القدس — فلسطين ! .

٢٥ / ٢ / ١٩٧٤

مسافر إلى سيرك الغرب !

وأنا أتأمل صور سولجنتسين بعد خروجه من وطنه روسيا ، وأنا أتأمله يتناول طاقات الزهور المقدمة اليه في ألمانيا الغربية ، وشوك الحزن يغزو وجهه، ثم يرحل الى سويسرا وفي عينيه ينمو حزن عميق ، والناس والصحافيون يحيطون به كأنه دب قادم من روسيا الى سيرك العالم الغربي ، لا أدري لماذا تلح علي أبيات قصيدة شاعر يوناني اسمه كافافي يقول فيها :

وتقول لنفسك ، سوف أرحل .
الى بلاد أخرى ، الى بحار أخرى ،
الى مدينة أجمل من مدينتي هذه .
لا أرض جديدة يا صديقي هناك .
ولا بحر جديداً : فالمدينة سوف تتبعك .
وفي الشوارع نفسها سوف تهيم الى الأبد !
وفي البيت نفسه سوف تشيخ وتموت !
لا سفن هناك تجليك عن نفسك .
آه ! ألا ترى انك يوم دمرت حياتك
في هذا المكان ،
دمرت قيمة حياتك ،
في كل مكان آخر على وجه الأرض ؟ ! .

* * *

أليس هذا ما تقوله عينا سولجنتسين في صور ما بعد الخروج من وطنه روسيا ؟ ..

١٩٧٥/٥/٥

القتل الصامت

النجم الذي بدأ يسطع في سماء اميركا المسرحية اسمه ويليام كالي .

شكسبير الاميركي هذا ، لم يكتب مسرحية خالدة ، وليس ممثلاً مبدعاً ، وليس وسيماً ، وليس مثقفاً خارقاً ، لكنه بدأ يظهر على أغلفة المجلات هناك ، (مجلة روك أوفر) ، وبيعت من اسطواناته التي يروي فيها حكايا مغامراته مئات الالوف ، وقد جمع حتى الآن ثروة صغيرة وينتظر أن يصبح قريباً من أصحاب الملايين ... فماذا فعل ويليام كالي ؟ (هل بينكم من يذكر هذا الاسم ؟) ... وما هي عبقريته التي قذفت به في غضون شهور إلى مصاف نجوم اميركا ؟

عبقريته هي انه قتل ٤٠٠ امرأة وطفل ورجل مدني !

يوم ٦ آذار (مارس) ١٩٦٨ دخل الملازم ويليام كالي (النجم حالياً) ورفاقه من الجنود الاميركيين قرية ماي لاي بفيتنام الجنوبية ، وهناك أبدى نشاطاً فائقاً على صعيد المذبحة ، فتمّ في ليلة واحدة ابادة ٤٠٠ شخص مدني من سكان القرية ...

ويومها ثارت شبيبة اميركا ، وكل محب للسلام والانسانية لم يخدر النظام ضميره ، واصبحت قرية (ماي لاي) رمزاً لبشاعة ما اقترفته بلادهم بحق شعب فيتنام وبقية شعوب الارض الاخرى ...

ومثّل يومئذ الملازم ويليام كالي أمام محكمة عسكرية وجهت اليه تهمة قتل ٢٢ شخصاً على الأقل وحكم عليه بالسجن المؤبد وذلك عام ١٩٧١ .

ولكن الحكم لم يكن سوى عملية تخدير لضمير الأمة على الطريقة الاميركية ...

وبكوكتيل من الألاعيب القانونية (في البداية اوقف نيكسون تنفيذ الحكم ثم خفض مدته إلى ٢٠ سنة ثم إلى ١٠ سنوات ثم جاءت محكمة جديدة طعنت في حكم المحكمة الاولى إلى آخره ...) ، المهم ، تم إطلاق سراحه ... وانطلق يتمتع بحماية اليمينيين في اميركا ، وتحول إلى نجم يعتاش من سرد مغامراته في فيتنام بعد ان تبنته

وسائل إعلامهم ، وأبرزته في احاديث صحفية واحاطته بفرقة مسرحية .

وصار السفاح نجماً ، يقف كل ليلة على المسرح ليروي للناس فظائعه في فيتنام ، ويغني حرب اميركا البشعة كما كان هوميروس الشاعر العبقري يغني حروب طروادة.. ولكن « الالياذة الاميركية » مليئة بالمخازي ، وأبشع ما فيها ان راويها هو سفاحها الذي يعتاش من عرض يديه الملوثتين بالدماء على الجمهور ... وان « هوميروس عصر الفضاء الاميركي » هو وحش بشري صنعه النظام الاميركي وتبناه .

وهكذا نجد ان الجريمة في عصرنا هي المهنة الاولى الرابحة ... ومن يدري ، فقد يتم إصدار جوازات سفر تفوق بأهميتها جوازات السفـــر الديبلوماسية ، تدعى « جوازات سفر سفاحية » وتكون خاصة بالذين يمتهنون « المجازر الرسمية » ... ويوضع فيها إلى جانب صورة حاملها والاسم والمهنة وطول القامة ولون العيون ، عـدد الذين استطاع السفاح إنجاز مهمة قتلهم بنجاح ... ومن يدري، فقد تستحدث اميركا وساماً خاصاً تدعوه وسام « المجزرة » ، مقابلاً « لوسام الفرسان » في البلدان الاخرى ، ويرصع الوسام بنجوم ماسية ، وتُعطى لحامله نجمة عن كل جثة ! ..

* * *

في العدد الأخير من مجلة « شتيرن » الألمانية تحقيق مصور عن فرقة خاصة من فرق الجيش الاميركي هي فرقة « القتل الصامت » التي تتدرب في « شاطىء الشيــاطين » في باناما . وكل دورة تتألف من ٨٠٠٠ انسان بريء (وكل الناس يولدون ابرياء) يتم تحويلهم في « قلعة شيرما » إلى ٨٠٠٠ فرانكشتاين بعد دورة تستغرق أسابيع عديدة ... ويتم خلال هذه الدورة غسل دماغ الفتيان من القيم الانسانية ، وتنمية الغرائز الوحشية والحيوانية فيهم بحيث يصيرون مهيئين للقيام بمذبحة في أية قرية يحتلونها في المستقبل ... ومما لا شك فيه ان السفاح النجم ويليام كالي قد خضع ذات يوم لتدريبات من هذا النوع شعارها « لا تفكر . نفذ ثم مت » . والمأساة ان الذين يفكرون ويخططون لأدوات الدمار البشرية تلك هم ساسة ماتت ضمائرهم ونبتت مخالبهم المخبأة جيداً خلف قفازاتهم البيض ... ان قلعة شيرما هي قلعة الطبيب المجنون الذي صنع الوحش البشري فرانكشتاين والتي طالما شاهدناها في افلام الرعب .. والفرق الوحيد هو أن مجنون الأدب والسينما أنجز وحشاً واحداً روّع قريته ، اما مجانين السياسة الاميركيين فإنهم يخرّجون اجيالاً من فرانكشتاين باسم الوطن ، ويطلقونهم في أوطان الشعوب الآمنة ليصنعوا أكثر من مذبحة وأكثر من « ماي لاي » ... ويخلّفوا جثث الاطفال معلقة

فوق الاشجار في الحقول ثماراً دامية للعنة هذا العصر البشع ...

لقد قال ويليام كالي في اثناء محاكمته : « لقد دربوني لكي أبيد الناس . دربوني لأقتل . لقد أفهموني بصورة لا تقبل الشك ان الابادة والقتل لا يشكلان خرقاً لقانون الاخلاق . فماذا فعلت سوى انني أديت واجبي ؟ » ..

* * *

فرقة « القتل الصامت » ... تأملت صور افرادها جيداً ... فمن يدري .. قد تكون وجهتهم المقبلة فلسطين لتعزيز اغتصاب «اسرائيل» لها ومساعدتها على تحقيق أطماعها التوسعية في الوطن العربي ..

تأملوا صورهم مثلي إذا وقعت في أيديكم مجلة « شتيرن » ... فقد يكون موتي أو موتك أيها القارىء على يدي واحد منهم ...

وقد يلمع أحدهم بعد أعوام كنجم اميركا السينمائي الاول ... كما حدث للملازم كالي ... فرانكشتاين عصر الفضاء !

٨ / ١٠ / ١٩٧٣

عودة بشعة للأميركي «الجميل» !

الليلة ، شعرت للمرة الاولى ، وأنا اشاهد فيلماً ، بالحاجة إلى الصفير واطلاق بعض العيارات النارية على الشاشة من مسدسي « غير المرخّص » ، بل حمل مقص أطعن به صور الممثلين ، والقاء بعض قنابل الروائح الكريهة في صالة السينما لان أية رائحة لن تكون أشد قبحاً من رائحة الفيلم المعروض !

فـ « السفالة » السينمائية السياسية تحرض الانسان أحياناً على معاملتها بالمثل ! ..

وتزييف التاريخ وتمجيد « فضائل واخلاق » بعض الشعوب الاستعمارية على حساب الشعوب الطيبة النامية أمر أشد فظاعة ، في نظري ، من الافلام الجنسية التي تسارع رقابتنا إلى منعها ، بغض النظر عن قيمتها الفنية ، كما لو أن جسد امرأة عارية أشد خطراً على أمتنا من الافكار السياسية الهدّامة !

اسم هذا الفيلم الذي عرضته احدى صالات بيروت ، خلال أسبوعين متواصلين ، « الشارة ٣٧٣ » .

وهو يروي حكاية ضابط شرطة أميركي ، يلاحق مدمني المخدرات القادمين من بورتوريكو . والبورتوريكيون في أميركا هم من البروليتاريا الرثّة والاقليات البائسة ، ويلقون ــ كزنوجها ــ معاملة غير انسانية ! وفي احدى هذه الجولات البوليسية يحاول مدمن بورتوريكي الهرب فيلقي بنفسه من على السطح فيقتل ويُعتبر الشرطي الاميركي « البريء » ، ذو الرقم ٣٧٣ ، مسؤولا عن قتله . وتتدخل «العدالة» الاميركية ، ويتم توقيف الشرطي عن عمله ريثما تُشكل لجنة تحقيق تبت في أمره ، خصوصاً ان هياج البورتوريكيين بلغ ذروته . وبعدها بأيام يجدون صديق الشرطي (وهو أيضاً من رجال الشرطة البيض) مذبوحاً بوحشية . وهنا يثور الشرطي ٣٧٣ ويعمل لكشف الجريمة رغم كونه خارج سلك الشرطة . ورغم كل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب على يد الاقلية البورتوريكية « المنحطة » ، نجده ينتصر في النهاية

ويكشف « مؤامرة » ضد اميركا ، وصفقة سلاح يحاولون شحنها إلى بلادهم في بورتوريكو للقيام بالثورة وتحرير الارض . الفيلم يرسم لنا صورة الشرطي الاميركي النزيه الاخلاقي في مواجهة « الثوار البورتوريكيين » الذين يقدمهم لنا في أبشع صورة . ففي هذا الفيلم نجد الثائر « مجنون عظمة » ورفاقه مهووسين بالجنس والمخدرات وفكرة الثورة « صبيانية » وهو يصوّر عذاباتهم بصورة كاريكاتورية ساخرة ...

وعلى طريقة أفلام الهنود الحمر ورعاة البقر ، نجد الآن راعي البقر الاميركي متقمصاً صورة عصرية هي الشرطي النيويوركي ، ونجد « الهنود الحمر » ، الاقلية ، في صورة الاقلية البورتوريكية ، وطبعاً يتم حصدهم بالرشاشات على يد الشرطي المغوار كما لو كانوا سرباً من الذباب ، تماماً كما كانت تتم إبادة الهنود الحمر في الافلام التقليدية العتيقة ! .. جميع السود في الفيلم اشرار . وجميع البيض في الفيلم أبطال يتمتعون بكل مزايا أسطورة عبقرية الفرد الاميركي وتفوّقه على شعوب الارض كلها ! .. حتّى رجل الشرطة الاسود ، ذو الاصل البورتوريكي ، يجعل منه الفيلم قاتلاً لصديقه رجــل الشرطة الابيض . هذا التمييز الفاشي العنصري نجده حتّى على صعيد الغواني ! فالاميركية البيضاء نجدها في الفيلم تتحول إلى سيدة فاضلة تستشهد دفاعاً عن اميركا « العظيمة » ، اما المومس التي تموت غارقة في أفيونها وعارها فهي سمراء ملونة من أصل غير جرماني ! كل البيض في الفيلم نبلاء يحبون أولادهم ويحرصون على سعادتهم ، وحتّى الابيض الوحيد في الفيلم الذي « يزلّ » ويغرر به السود ، انما يفعل ذلك من اجل اعالة أسرته ، ويدفع حياته ثمناً لخطيئته الزوجيــة والمسلكية (وربما يفعل ذلك لانقاذ ما يمكن انقاذه من تحامل الفيلم على السود !) ولكن الفيلم لا يفسر لنا سبب ضائقته المالية ، خصوصاً ان زميله الشرطي (من المفروض ان راتبهما واحد) يمتلك سيارة أميركية فخمة هائلة الضخامة حرص المخرج على استعراضها في كل لقطات الفيلم دلالةً على « عظمة » الصناعة الاميركية أيضاً ! ..

منذ أعوام أغرقتنا السينما الاميركية بأفلام تتحدث عن « المجد الاميركي ، العظمة الاميركية ، التفوق ... الخ ، الاسطوانة اياها » في اطار أفلام « الهنود الحمر » ، تسوّغ الابادة الجماعية لذلك الشعب الآمن ... وتربينا ونحن نشاهد هذه الافلام المزوّرة للتاريخ . واليوم تبدأ أميركا باصدار دفعة جديدة عصرية من الافلام تؤدي اللعبة القديمة نفسها . ولأن لعبة الهندي الاحمر « البشع » انكشفت للعالم ، لجأت هوليوود إلى لعبة جديدة تتلاءم وأحداث العصر ، فعادت تعرض لنا صورة « الاميركي

الجميل » الذي يحارب « الثوار البشعين » وشعوب العالم النامية ، وينتصر عليهم ويبيدهم مصورةً هذه الابادة كما لو كانت عملا أخلاقياً له مبرراته « الانسانية » ، وذلك في سلسلة أفلام جديدة شاهدت بعضها مؤخراً – وكلها تسخر من ثورات العالم الثالث وثواره – وكثرتها تدل على أن الامر قد لا يكون مصادفة وانما نتيجة سياسة اعلامية مدبّرة ... واذا كان اختراع السينما انتصاراً علمياً كبيراً ، فانه من المؤسف توظيف الحضارة في خدمة الحقارة ، وفي محاولة لتسويغ اضطهاد أميركا للأقليات ، والسخرية من الثورة والثوار والحرية وحق الناس في أرضهم ...

لقد كنت دائماً ضد فكرة « منع » أي فيلم أو كتاب أو منشور ... كنت دوماً أؤمن بأن مساوىء اطلاق الحرية أقل من مساوىء كبتها ولجمها ...

ولكنني اقترح « مقاطعة » هذا النوع من الافلام الاميركية ، وأن يتم ذلك بناء على موقف واعٍ للمستوردين ولو كلّفهم الامر بعض الخسارة المادية ، لأن عرض هذه الافلام الدعائية الاعلامية المضلِلة جزء من الحرب ضدنا ، وبالتالي فان في عرضها خدمة لاميركا ، ولأنه في حال تحقيق هذه المطامع لن يبقى لأحد منا أرض أو نقود ... ولأننا جميعاً مرشحون – مع شعب فلسطين – لنكون « الهنود الحمر » في الارض العربية ! ...

١٢ / ١١ / ١٩٧٣

إنه ثمن رصاص لرؤوسنا !

وجسر النار ممدود بين اميركا واسرائيل ، جسر من العداء للعرب تعبر عليه كل يوم آلاف الاطنان من ادوات الدمار المعدّة لقتلنا ... وفي كل يوم ، كل يوم تقلع أكثر من طائرة تحمل آخر مبتكرات الاسلحة الاميركية للابادة ، هذا بينما نكون نحن منكبّين على شراء آخر مبتكرات السيارات الاميركية وغيرها من المنتجات ، كأننا ندفع ثمن صناعة الاسلحة المشحونة لقتلنا !

أتساءل ، والولايات المتحدة الاميركية اليوم عدونا المباشر ، حتامَ نساهم في بناء اقتصادها الذي صار مكرّساً لتدمير وجودنا ؟ ! .

هل نستطيع بعد اليوم ان نرى سيارة اميركية الصنع دون ان نتذكر الدبابات الاميركية الزاحفة في سيناء والجولان تحاول تدميرنا ؟ !

هل نستطيع ان ندخن لفافة تبغ اميركية دون ان نحسها وقد استحالت فجأة بين أصابعنا اصبع ديناميت يفجر تسامحنا امام مصنوعات عدو بلادنا ؟ ! .

هل نستطيع ان نرشف بعد اليوم قطرة خمرة اميركية الصنع دون ان نحس بدوار بائس كالدوار الذي يعانيه العرب حين تنفجر قنابل الغاز الاميركية الصنع في غرف اطفالهم ؟! .

هل نستطيع ان نشتري دمية لأولادنا من صنع اميركي دون ان نتذكر القنابل الاميركية المصنوعة على شكل دمى والتي كانت الطائرات الاسرائيلية تمطر بها اطفال المدن السورية والمصرية هدية من « بابا نويل » الاميركي ، وما يكاد الطفل يهرع اليها فرحاً حتى يموت وقد تحجرت على فمه صرخة زرقاء محترقة تشبه الابتسامة ... انها الابتسامات التي يرسمها « بابا نويل الاميركي » على شفاهنا ؟ ! .

وحينما نمسك بآلة كاميرا من صنع اميركي ، نضعها على عيننا في محاولة لالقاء القبض على لحظة سعادة ، هل نملك بعد اليوم إلا ان نتذكر عشرات العيون الاسرائيلية

الملتصقة بعدسات اميركية الصنع على المدافع والبنادق المعدّة خصيصاً لإطلاق النار على لحظات السعادة لكل عربي ؟ ! .

هل نستطيع ان نلتهم بعد اليوم المعلبات الاميركية دون ان تسقط في احشائنا كالسم ، وتنفجر بين أيدينا كاللعنة ، لان صانعي هذه « الأطايب » يحصدون ثمن معاملهم من جوع الفقير العربي ؟ !

١٩٧٣/١١/٧

جائزة نوبل للسلام لطائرة فانتوم العدوان !!

بينما كانت مئات الطائرات الاميركية تنقل أسلحة الموت والدمار إلى «اسرائيل» كي تتابع افتراسها للشعوب العربية ، وبينما كان الرئيس نيكسون يعلن الحرب على العرب بلغة دبلوسية تكتفي مفرداتها بالتحدث عن حماية اسرائيل التي « وجدت لتبقى » ... إلى آخر المعزوفة الاميركية العدوانية ، وبينما شعوب العالم الحر تستنكر ذلك كله ، وبينما الاميركيون المقيمون في الشرق الاوسط ينطلقون صوب سفاراتهم في بيروت في مسيرة رفض لسياسة جلاّدي بلادهم ، وقد حملوا اللافتات : «واشنطن لقد ابتاعك الاسرائيليون» ـ « هنري كيسنجر ، مارس الحب لا الحرب » ـ « العرب لهم الحق في أراضيهم » ... وبينما الحرب العدوانية التوسّعية الاسرائيلأميركية تقوم بمزيد من غارات اغتيال الطفولة والانسانية والعدالة ، بينما ذلك كله يدور على مرأى ومسمع من العالم ، طلعت علينا وكالات الانباء بالخبر التالي : مُنح الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركية جائزة نوبل للسلام !!! أجل للسلام !!!

للوهلة الاولى يبدو الخبر شبيهاً بنكتة سمجة على الطريقة الاميركية (براكتيكل جوك) ... نكتة ؟ بل مهزلة ! انها لمهزلة ان تمنح جائزة نوبل للسلام إلى برميل من الديناميت !!! فالمعروف أن العالم نوبل ، الـــذي اخترع الديناميت T. N. T ذات يوم ، قرر أن يكرّس كل ما يملك تكفيراً عن خطيئة إمكانية استعمال الديناميت ضد الانسانية ... وقرّر انفاق كل الاموال التي كسبها من اختراع الديناميت على كل ما من شأنه تعزيز السلام والعدالة ، ومن هنا كانت جائزة نوبل للسلام . وبعد حرب (حزيران ٦٧) بأشهر ، تم منح جائزة نوبل للكاتب الاسرائيلي اجنون ! وكانت صدمة للعالم الحر ، فقد كانت لجائزة نوبل يومئذ هالتها كقيمة إنسانية ... وطرحت يومها تساؤلات كثيرة عن الاعتبارات (غير الانسانية) التي لعبت دورها كي تمنح جائزة نوبل لبرميل من الديناميت !!!

وظلت هناك فئة من حسني النية أشادت « بالأسلوب الادبي الجميل » لأجنون ، ورغم يقيننا بان الأسلوب امتداد للفكر ووعاء له ، وبالتالي ليس هنالك أساوب جميل إذا كان المضمون عدوانياً ولاانسانياً ، مع ذلك سكتنا ، بل كدنا ننسى لأننا بدلاً من مقاطعة جائزة نوبل عدنا نتحدث منذ أشهر عن ترشيح كتّاب عرب « للفوز » بها ...

اما الآن ، فما هو المبرر لمنح وزير خارجية اميركا ، أي المنفّذ لسياستها العدوانية المغتصبة ، جائزة السلام ؟ ؟

صحيح أن الجائزة منحت مناصفةً بينه وبين لي دوك ثو ، الثوري المناضل المقاتل الذي أجرى وإياه محادثات أدّت إلى اقرار السلام في فيتنام ، ولكن هل يشفع ذلك لكيسنجر الذي أغلق فيتناماً ليفتح في أرضنا فيتناماً أخرى ؟ كيسنجر يصافح لي دوك ثو بيد ويعطي الإشارة للطائرات الاميركية الألف ، المحملة بالموت ، للطيران إلى شرقنا الأوسط والبدء بحرب عدوانية جديدة ! انه «دكتور جيكل ومستر هايد» السياسة الاميركية ، في يده غصن الزيتون ، وفي الأخرى خنجر يقطر بدم العرب ، فكيف يمنح جائزة نوبل للسلام في اليوم ذاته الذي يبدأ فيه مذبحة « ماي لاي» جديدة ؟ !

لو قدّم كيسنجر استقالته احتجاجاً على شحن الأسلحة إلى اسرائيل لاستطعنا ان نجد مسوّغاً لمنحه جائزة السلام .... ولكن !

ولكن ، اين تعيش اللجنة القيمة على جائزة نوبل ؟ ! هل تعيش في محجر فكري ولا تعرف شيئاً عما يدور على وجه الكرة الارضية ، الذي جرحته عدوانية اميركا في أكثر من موضع ، وتركت فيه ندباً لا تندمل آثارها أبداً ؟ ! .

ألا يقرأ افرادها الصحف ؟ ألا يستمعون إلى الاذاعات ؟ ألم يشاهد أحدهم قط صورة طفل أحرقه النابالم الاميركي في فيتنام أو فلسطين أو سورية أو مصر ؟ هل يظنون ان كيسنجر يشحن على الطائرات الشوكولاته و « البونبون » والدمى لاطفال الشرق الاوسط ، والحمام الابيض وغرسات الزيتون لاهله ؟ ! . — بلى ... كان يشحن لنا الدمى : أميركا تصنع لاسرائيل قنابل على شكل دمى الاطفال : ترمي بها طائراتها ويحترق بها أطفالنا حين يحاولون اللعب بها — . (معلومات من تقرير الاطباء الموفدين إلى سورية) .

* * *

في نطاق اسبوع الاغتراب اللبناني تنظم جامعة اللبنانيين في العالم مهرجاناً لالقاء

الشعر بين الطلاب الثانويين والجامعيين. نعم! مهرجان لالقاء الشعر! .. كأن ما يدور بيننا وبين «اسرائيل» هو « مساجلة شعرية » لاحرب بـ « الفانتوم » ! كأننا في سوق عكاظ لا في ساحة حرب ! هذا بينما ينشط يهود العالم لجمع التبرعات وقد جمعوا مئات ملايين الدولارات في أيام ، وأيام اخرى وتتحول الملايين إلى طائرات وقنابل تمطر فوق سمائنا ، وقد تسقط واحدة منها فوق مهرجان الخطباء ! ما أشد اغتراب المغتربين عن لبنان ! بل ما أشد اغتراب بعض اللبنانيين عن لبنان !

فبينما كان بعضهم مشغولاً في بيروت بانتخاب أجمل كلب وأرشق كلب ، كان عشرات اللبنانيين على بعد بضعة كيلومترات منهم يُحصدون في جنوبي لبنان بمنجل القنابل والموت والدمار ... ويناموت وملء افواههم الدماء ...

المهم أن أجمل كلب نام ليلتها وفمه ملآن بالحلوى ! ..

١٩٧٣/٩/٢٤

المازوشية العربية والسادية الإسرائيلية

«انني اتهم عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية ! » ، قالها أديب معروف واسترخى في كرسيه متخماً بالرضى عن الذات والنوم ، وكأنه « ادى قسطه للعلى » ! واقبل بقية رفاق السهرة عليه مستفسرين . كيف ؟ وأين ؟ قال بطمأنينة : هل قرأتم رائعته « سارة » ؟ وهل قرأتم رواية « نهاية علاقة » لجراهام جرين ؟ ما رأيكم في هذه السرقة الأدبية المفضوحة ؟ ! وعدنا إلى دهاليز الذاكرة ، ولم يجد الذين قرأوا الكتابين (« سارة » للعقاد و « نهاية علاقة » لجراهام جرين) مفراً من الاعتراف بالتشابه الهائل بين القصتين ، واتخذ الجميع قراراً بالاجماع بإدانة عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية وانفضت السهرة ، وذهب قضاة الادب ومحلفوه للنوم بضمائر أدبية قريرة العين ! ..

وعدت وسؤال واحد يعذبني : لماذا قررنا جميعاً ، دون أن يرف لنا هدب ، ان عباس محمود العقاد سرق قصته « سارة » من جراهام جرين ، دون أن يخطر ببال أحدنا احتمال آخر هو ان يكون جراهام جرين هو الذي سرق قصته من العقاد ؟ العقل العلمي الحيادي المتجرد يجب أن يفترض ، أمام حالة كهذه ، ثلاثة احتمالات ويحقق فيها :

١ ــ أن يكون العقاد قد سرق « سارة » من جراهام جرين .
٢ ــ أن يكون جراهام جرين قد سرق « نهاية علاقة » من العقاد .
٣ ــ ان لا يكون أحدهما قد اطلع على نتاج الآخر ــ أي أن يكون هنالك توارد خواطر ــ أو أن يكون كلاهما استقى فكرة روايته من مصدر ثالث مشترك .

وعدنا إلى الكتابين ، فوجدنا أن العقاد كتب « سارة » قبل أن يكتبها جراهام جرين بعشرة أعوام ، وهذا معناه انه إذا كانت هنالك « جيمسبوندية أدبية » فبطلها هو الأخ جراهام !

المهم ليس التساؤل هل اطلع جرين على « سارة » للعقاد ، وهل هي مترجمة

للانكليزية أم لا ، وهل في الامر سرقة أم توارد خواطر .

لا ، المهم في نظري ظاهرة إدانة عباس محمود العقاد لمجرد أنه كاتب عربي ، ولمجرد ان جراهام جرين أجنبي !

المهم تلك البساطة التي تمّت بها ادانته من قِبل جمع المثقفين ، كما لو كان الامر بدهياً ولا يحتاج حتّى إلى نقاش !

المهم التنبيه إلى خطر السقوط فريسة عقدة النقص أمام الاجنبي ، وهي ظاهرة خطرة في مجال الادب ، وغير الادب .

بعد ٥ حزيران كان همنا نقد الذات كردّة فعل على نغمة تمجيد الذات الخطابية التي عشنا في خدر حشيشها بعد هزيمة ١٩٤٨ ... كانت ردة الفعل يومها خاطئة ، وعاش العربي في وهم العظمة ، ورقص أعواماً على ألحان « أمجاد يا عرب أمجاد » ، حتّى كانت هزيمة ١٩٦٧ ... ويومها صار شعارنا إحراق الاقنعة ، وكان ذلك ضرورياً . وصرنا نحاول كشف عورات الانسان العربي والحكم العربي ، وكان ذلك ضرورياً . ولكن يبدو اننا بالغنا في ذلك بقدر ما بالغنا قبل ١٩٦٧ بالحرب الخطابية ، حتّى كدنا نسقط بعد ١٩٦٧ في فخ هزيمة أخرى خطابية . وانتقلنا من موّال تمجيد الذات المبالغ به إلى موال تحقير الذات المبالغ به .

وعاماً بعد عام ، كاد يرسخ في أذهاننا ان التخلف العربي أمر بدهي لا يناقش — التخلف الأدبي والاقتصادي والعسكري — وترسخت في الأذهان أسطورة التفوق الاسرائيلي « الكومبيوتري » الذي لا يُقهر ...

لا . لا . لا .

اننا نتحدث عن عظمة بعض الادب الغربي كي نتعلم منه ونتفوق عليه ، لا لنصاب بعقدة نقص امامه .

اننا نتحدث عن عدونا الاسرائيلي واستعداداته العسكرية كي لا نكرر غلطة ما قبل ١٩٦٧ ، ولأن المبالغة في تقييم قوة الخصم خير من الاستخفاف الخاطىء به .

ولكن حذار من ان يتحول تقييمنا لقوة الخصم إلى أفيون أكثر خطورة من أفيون الاعتداد الخطابي بالذات ، وهو افيون التوهّم بأن العدو لا يقهر ، وبأن « الفانتوم » الاسرائيلية لا تُواجَه ، وبأن أي أديب غربي هو أفضل من أي عبقري عربي !

يبدو أن علينا أن نحذر من خطر الاسترسال في نغمة تقريع الذات وتحقيرها . فالمازوشية العربية ستجد السادية الاسرائيلية لها بالمرصاد .

۲۸ / ۱ / ۱۹۷٤

أعيدوا الشمس والفرح والحب إلى الثائر !

كاتب عربي ، ربع مشهور ، صرح لاحدى المجلات بأن دور النشر في بيروت رفضت نشر مخطوط رواية له لأنها « ثورية ! » . . .

أيتها الثورية ، كم من الجرائم الأدبية ترتكب باسمك !

فقد كان من سوء طالع الاديب انني اطلعت على مخطوط روايته لدى صديق مشترك ، وبالصدفة وأذكر بوضوح انني قلت يومئذ لذلك الصديق : « انها رواية تسيء في نظري إلى الثورية لما تتضمنه من سماجة وثقل دم ! »

... اجل ، سماجة . هذه هي الكلمة ، وما كنت لأكتب هذه السطور لو لم تكن هذه الملاحظة عامة أكثر منها خاصة تتعلق بكاتب معين .

... اريد ان اسوق هذه الملحوظة العامة التي خرجت بها بعد قراءة عشرات المخطوطات الروائية السياسية مؤخراً .

بعض كتابنا الجدد ، (حتّى بعض أصحاب الاسماء المعروفة) ، الذين يتحدثون عن بطل « ثوري » ، يرسمونه على الوجه التالي : سمج . فاقد لروح النكتة . يحتقر المرأة الا في حالات التعاطف « من فوق » . لا يعتمد على رفيقته الثورية ، فهو إما أن يشتهيها أو يشفق عليها ! شخصيته المملّة جنازة متحركة .

وبعض كتابنا الذين يدّعون أن رواياتهم « ثورية » ، وأن دور النشر ترفضها لذلك ، هم في الواقع كتّاب لصفحات مملة ، لا علاقة لها بالادب ، وانما هي مجرد محاضر ندوات سياسية وعقائدية ، ومحاضر كل حوار ممل دار بين المؤلف والمنكوبين بمعرفته .

أكثر هذه الروايات مواليـــة تمامـــاً للشعارات الثورية متضمنة لكل لافتاتها وكليشيهاتها ، ولكنها فاقدة لأية روح فنية ولأية شرارة ابداع . فالمنشور السياسي ، مهما كان نبيل الغاية والاتجاهات ، ليس فناً !

وهذه الكلمات أخطها لأحذّر شبابنا الطالعين من الخلط البشع بين البيانات والفن، بين النشرات السياسية والفن ، بين الشعارات والفن .

على انه من البدهيات ان السياسة ليست خارج الفن ، لان الفن ليس — ولا يمكن ان يكون — خارج الحياة . والنشرات السياسية ليست نشرات جوية عن حالة الطقس في استراليا في القرن الماضي ، وانما هي تعبير — أو بعض تعبير — عن واقعنا العربي المعاصر، ولكن نسخها بإتقان أو إدخالها على حنجرة بطل روائي ميّت روائياً لا يكفي لإبداع ذلك النسيج الحي الخالد المسمى فناً !

إنّ رفع شعارات الثورية ، وترديدها كالببغاوات في عمل روائي على لسان أبطال الرواية ، أمر يسيء إلى الثورية أكثر مما يسيء إلى الادب ! ومطلوب من الثوريين أن يحموا أنفسهم من طفولية الأدب الثوري أكثر مما هو مطلوب من الأدباء حماية ملكوتهم من الدخلاء تحت دروع الثورية !

* * *

فالفن العظيم ليس انعكاساً للواقع بقدر ما هو تبشير بالمستقبل. وليس مطلوباً من الجيل الأدبي المعاصر أن يكون مجرد مرآة عادية للأحداث المعاصرة بالضرورة ، بقدر ما هو مطلوب من روح كلماته ان تكون شبه نبوءة عن المستقبل وتحريض له ، كما هي زجاجة الساحرة الكروية الشفافة .

أجل ! ..

الأدب الثوري الشاب المعاصر — إلا في ما ندر — يزيّف الحياة وبالتالي يخسر الفن والسياسة معاً . إنه يصوّر الثوري في صورة غير جذابة إنسانياً . وأنا أرفض ان تحتكر البورجوازية كل الصفات المحببة ، مثل خفة الدم واللطف والعذوبة والرقة والقدرة على الحب والاستمتاع بالحياة والشمس والفرح ، وارفض كل الروايات التي تصور الثوري إنساناً راهباً متزهاً عن الحب والجنس والفرح والألم والبكاء ... وحتى لحظات الضعف والصلاة !

مطلوب من الرواية العربية ان « تؤنسن » الثائر وتكفّ عن رسمه داخل تلك الهالة اللاواقعية السمجة الغبية ، كما لو انه يقضي وقته كله في المقاهي بالجدل العقيم الممل ، والأحاجي الفكرية ، واتهام كل الناس البسطاء بالخيانة العظمى، بما في ذلك

احتقار والديه ، والتصرف تحت تأثير الاعجاب بشخصية «لامنتمي» كامو الذي يتميز بالذهاب إلى السينما ليلة وفاة والدته !

مطلوب من الأديب العربي إعادة الإنسانية إلى صورة الثائر . إعادة الدمع اليه ، والفرح ، والحب ، والجنون ! .. أي الشعر .

٦ / ١ / ١٩٧٥

نحن زرعنا الشوك !

كثيرة هي المقالات النقدية التي قامت بمراجعة لفن ٦ اكتوبر ، أي الاعمال الفنية التي تستوحي ذلك الحدث التاريخي المهم . وقد اطلعت على معظمها ، وكان القاسم المشترك الذي يجمع بين تقويم أكثر النقاد للنتاج العربي في هذا المجال ان فن ٦ اكتوبر كان على صعيد المسرح والسينما سيئاً وفاشلاً ، وأن حاله على صعيد الأدب لا يثير الحسد ! وكان كل ناقد يحصي العوامل العديدة التي سببت نكسة الفن في اكتوبر — وهم على حق في رأيهم وفي أكثر الملاحظات التي أبدوها — غير انهم جميعاً نسوا عاملاً مهماً واساسياً أسهم في الدرك الذي انحطت اليه الحالة الفنية ، ألا وهو مسؤوليتهم هم شخصياً عن هذا الحصاد الفني الرديء !

من الواجب تذكير النقّاد بالخطأ النقدي البالغ الذي ارتكبوه — وما زالوا — منذ هزيمة ١٩٦٧ ، ذلك الخطأ المسؤول في نظري — ولو جزئيـــاً — عن تدهور الفن « الملتزم » ، وبالاحرى عن تحوّل الالتزام إلى هاوية خراب فني بدلاً من قمة عطاء...

ان من يتابع النقد الفني الذي يُكتب في الصحف والمجلات « الملتزمة » وغير الملتزمة يلحظ إلحاحاً من بعض الذين نسميهم — تجاوزاً — بالنقاد على امتداح الاعمال ذات « المضمون التقدمي » بغض النظر تماماً عن قيمتها الفنية . كان هناك باستمرار انحراف مؤسف نحو القبول بالتقريرية والمباشرة والخطابية ، ولو تم ذلك كله في اطار من الركاكة الفنية . ولمّا صدرت قصص هي أشبه بمحاضر الجلسات الحزبية صفقت لها جوقة نقاد « الالتزام » دون مراعاة الحد الأدنى من الاعتبارات الفنية التي يفترض توافرها في أي عمل فني .

وهكذا فسد جيل من الشبان الناشئين ، وصارت أنظارهم موجهة نحو تضمين أعمالهم أكبر عدد ممكن من الكليشيهات والشعارات المرضي عنها من قبل اولئك النقاد ، وكأن كل وطني هو فنان بالضرورة ، وكل تقدمي مخرج سينمائي ، وكل

حزبي مسرحي أو شاعر ! لقد تغاضى اولئك النقاد كثيراً عن المقاييس الفنية ، عن الموهبة ، عن الأصالة ، عن شرارة الابداع ، وصاروا يتحدثون عن الأدب كما لو كان خطبة في مؤتمر سياسي ! وشاعت مفاهيم كثيرة خاطئة . كان الخطأ الأساسي هو في سوء فهم معنى الالتزام ، وبالتالي العلاقة بين الأدب والحدث السياسي .

بعد ٥ حزيران ، صار كل فنان مطالباً بالتعبير عن ذلك الحدث الحربي ، ولو بشكل فجّ ومباشر ، وإلا اتهم بعدم الانفعال مع قضايا الجماهير . بعد ٦ اكتوبر تمت إدانة كل الذين « انفعلوا » مع القضايا الجماهير في هزيمة حزيران ، وصار مطلوباً منهم فوراً تبديل قناعهم الحزيراني بقناع اكتوبري . ولدت تسميات لا علاقة لها بالفهم الصحيح لروح الفن ومهمته . فالفنان ليس مجرد « كومبيوتر » نحشوه بالمعلومات « الهادفة الملتزمة » ونتلقى منه فوراً الاجوبة المطلوبة . وعملية الخلق الفني قد تستغرق أعواماً طوالاً . والالتزام لا يعني بالضرورة التسجيل الحرفي لأحداث العصر ، بل المهم في العمل الفني هو أن يكون عملاً فنياً أولاً . فكل عمل فني جيد هو بالنتيجة ملتزم بموقف إنساني ولكن على طريقة الكاتب الفذة الرافضة لكل الشروط المسبقة .

لنأخذ الكاتب الروسي العظيم نيقولاي غوغول مثلاً . ان كتابه « تراس بولبا » هو نموذج للأدب المقاوم الثائر ، المليء بالثورة على الاضطهاد والظلم وكل البشاعات التي تقف في وجه الحب والفرح والطفولة .

صدر الكتاب عام ١٨٤٣ ، وهو لا يروي حكاية « نكسة » أو « انتصار » حدث قبل صدور الكتاب بعامين أو خمسة أعوام ، بل اختار مؤلفه تصوير حقبة من تاريخ شعبه تعود إلى عام ١٥٦٩ (أي قبل ٣ قرون من ولادته) وقد وجد في نضال الشعب الروسي وفلاحيه الاوكرانيين ضد الاقطاع البولوني وتسلطه في ذلك الوقت الاطار الذي تدور فيه احداث قصته الهادفة ، دونما ارتزاق مدّعي الثورية ، ودونما استجداء لتصفيق عملاء السلطة أو بعض نقاد العصر القصيري النظر النقدي .

فالالتزام ليس إلزاماً بأحداث معينة وانما هو روح ثورية تفيض من العمل المبدع الذي يمكن ان يكون قصة حب أو حكاية قط (كما في كتاب « جيني » لبول جاليكو) أو حكاية طائر (كما في كتاب « جوناثان ليفنغستون النورس » لريتشارد باخ) ، وغيرها من الادب العالمي العذب الذي يستطيع حتى الاطفال قراءته والتأثر بروحه الثورية دونما قسر . والخطأ الاساسي الذي وقع فيه بعض النقاد الملتزمين هو التوهم

بأن من ضرورات الأدب الملتزم ما يلي :

١ — ان يكون البطل فدائياً أو مقاتلاً أو فرداً في حزب ثوري .

٢ — أن يتحاشى الابتسام أو الحب أو المزاح أو الضعف البشري ، حتى كاد يرسخ في أذهان القراء ان الثوري هو بالضرورة سمج وثقيل الدم وبليد العاطفة !

٣ — ان يكون حواره باستمرار خطباً وطنية ، ومن الضروري ان يلقي في المطبخ على زوجته باستمرار مواعظ فكرية عن استراتيجية المعركة وتكتيكاتها ومن الأفضل ان يباشر ذلك منذ ليلة العرس ! وفي اختصار ، وقع أكثر نقادنا في الخطأ الذي حذّر منه ارنولد ويسكر ، المسرحي البريطاني اليساري المعاصر ، حين قال : « الهزء والسخرية ، اللذان صبغ « الاشتراكيون » بهما دراسة الآلام الشخصية في الحقل الفني ، ساعدا على خلق صورة للثائر غير إنسانية تعوزها حرارة القلب . وقد يكون هذا هو السبب في ان الكثير من اليساريين يظهرون حيال الفن والفنانين الموقف الطهراني (البيوريتاني) ذاته الذي يقفه عدد لا يحصى من البورجوازيين الصغار الضيقي الأفق . »

وهكذا نجد ان أكثر نقادنا من « الملتزمين » صغّروا افق الفن الرحب ، ورسموا عليه إطاراً من الشعارات المسبقة بحيث ان كل ما يقع خارج هذا الاطار ليس فناً وكل ما يقع داخل هذا الاطار هو فن ، حتى ولو كان مجرد محاضر جلسات لنقاش فكري !

وها هم اليوم يصبّون جام غضبهم على مسرح وسينما اكتوبر وأدب حزيران والخطأ هو أصلاً في هذه التسمية أو حتى في المطالبة بوجود أدب حزيراني وأدب اكتوبري . هنالك إبداع أو لاإبداع ، وهذا هو الاصل وكل ما عداه يؤدي إلى نتيجة محتومة هي ذلك السيل من الافلام التافهة والمسرحيات المهلهلة « الاكتوبرية » .

وها هم يشكون من حصاد اليوم ، ناسين أن من يزرع الشوك يحصده ، وان بذور السطحية لا تنبت السنديان ! لقد خسرنا الفن ولم نربح السياسة . والسبب لخصه ببساطة ماوتسي تونغ يوم قال : « الأعمال التي تنقصها القيمة الفنية ، حتى لو كانت ذات صبغة تقدمية ، تظل عديمة المفعول من وجهة النظر السياسية . »

المطلوب ان يعي بعض النقاد مسؤوليتهم عن انحدار « الفن الملتزم » ، وحين يتسلم أحدهم كتاباً ولد مشوّهاً من الناحية الفنية ، فليتذكر مسؤوليته كأب من آباء خطيئة تتفيه الفن العربي في هذه المرحلة !

٢٢ / ٧ / ١٩٧٤

أوجاع ... أدبية !!

الموضة الأدبية اليوم : الشعر الوطني ! ... وأبرز اخطاء المرحلة الأدبية التي نمرّ بها هو التوهم بأن كل وطني شاعر .. وفي مرحلة سابقة كان الخطأ هو التوهم بأن كل عاشق شاعر ...

وهكذا كان كل عاشق يظن ان حرارة انفاسه تكفي لتحول كتاباته من فحم إلى الماس ...

واليوم تتكرر المهزلة ضمن الموضة السائدة أي الوطنية ، وهكذا يتوهّم كل مناضل انه شاعر . (كأنه يكفي المرأة ان تكون مبتورة الذراع لتصير فينوس) ...

وهذا خطأ يشجع على التمادي فيه فئة من الشبان ذات الاتجاه الوطني السليم تكتب « نقداً » ... وهذه مهزلة أخرى ، لانه لا يكفي ان يكون المرء فرداً في حزب أو منظمة ليتم تسليمه باب النقد الأدبي في المنشورة التي تموّلها تلك المنظمة ...

نعود إلى الشعراء ...

الوطنية شيء عظيم . شيء رائع ومهم وضروري .. يستطيع كل وطني ان يكتب منشوراً ، أو خطبة ، أو يخطط للأجيال الصاعدة . ولكن ما كـــل وطني شاعر بالضرورة .

الشاعر يجب ان يكون موهوباً ، وحُسْنُ الاتجاه السياسي ليس بديلاً عن حسن الموهبة ...

والسؤال هو : من الذي يستفيد من كل هذه المطبوعات السياسية التي تحمل اسم «شعر» على غلافها زوراً وبهتاناً؟وهل التهاون في مجال القيم الشعرية لأجل القيم السياسية يفيد الجيل الذي يقرأ هذا الشعر ؟ ..

اقول لا . بل يساهم في « تتفيه وتضحيل » القضايا الوطنية .

* * *

ملاحظة أخرى... أو لنقل وجعاً آخر... لقد بدأت تسري في الآونة الاخيرة في عالم الشعر موضة جديدة وهي كتابة قصيدة غزل رديئة ثم تطعيم بعض سطورها بعبارات قومية وكلمات مثل (أرضي ، وطني . إلى آخره) والادعاء بأن الشاعر يقصد من ذلك إلى التعبير عن حالة شعورية يتحد فيها جسد الارض وجسد الحبيبة وبذلك (يغازل) الحبيبة دون ان يتورط بتهمة انه ليس شاعراً وطنياً ... وقد بدأت أعراض هذه المهزلة تسري مؤخراً .

وهذه الظاهرة أبشع من الاولى ... ففي الظاهرة الأولى هنالك شخص وطني تدفقت مشاعره وظن أن خصب المشاعر يعني انه « شاعر » ... اما في الحالة الثانية فلدينا طائفة من المستغلين الصغار ... إنهم يبيعوننا الوطن معبأ في علبة (كونسروة) الجسد ، ويدغدغون جوعنا الجنسي والوطني معاً ، ويمتصون دم براءتنا وحاجتنا إلى الاثنين : الوطن والجنس ...

إن تمازج جسد الوطن بجسد الحبيبة أمر يحتاج إلى موهبة حقيقية كبيرة كبيرة تتسع لوعي انصهار الاثنين معاً : الوطن والعشق ...

* * *

ومع ذلك ، يظلّ لأصحاب هذه الفئة الثانية عذرهم أيضاً ، فـ « النقاد » ايضاً مسؤولون عن ذلك بشكل غير مباشر .

النقّاد الذين يدعون الغربلة باسم الثورية ، والذين نصبوا صراطهم للأدب في يوم قيامة الثورة ، يُبدون هذه الايام استخفافاً شديداً بكل الاحزان الصغيرة الفردية التي يحس بها الانسان ... انهم يحتقرون الحب : حب رجل لامرأة ، ويقدّسون حب الرجل للارض مع ان الحب وحدة لا يتجزأ والذي لا يحب امرأة لن يحب أرضاً ولا قضية ... وهكذا صار الكتاب يمارسون عملية « اسقاط » سطحية لمشاعرهم ، وبدلاً من مغازلة ذراع الحبيب مباشرة نجد الشاعرة مثلا تتغزّل بذراع الشجرة ، وبدلاً من نقل الاحاسيس الفردية الصغيرة بصدق وأمانة ، صار يتم تغليفها بأقنعة وطنية كبيرة ... وهكذا أيضاً نخسر الحب ولا نربح الوطن ولا الشعر . .

* * *

كلماتي هذه ليس المقصود منها جرح أحد ، وانما ايقاظ الجميع بحنانٍ قدر الامكان !

٢٩ / ٤ / ١٩٧٤

اقرأوا هذا الكتاب القذر !

ذلك المساء ، كان قلبي حزيناً . أكثر حزناً من ان ألجأ إلى الاصدقاء أو المقاهي أو حتى المناشير الاحتجاجية ! فلجأت إلى اول مكتبة بحثاً عن كتاب بوليسي يخدر أوجاعي السياسية وغيرها ريثما ألملم نفسي الممزّقة من على أرصفة الحلول السلمية غير العادلة ، والنظريات الكيسنجرية للقضية الفلسطينية ...

وفي رف الكتب البوليسية لفت انظاري هذا العنوان : « الوباء العربي (*) » !

هل كنت أملك إلا شراءه ، وعلى الغلاف ما يؤكد بأنه رواية بوليسية جاسوسية بيعت منها ٨ ملايين نسخة وتدور احداثها في بلاد العرب ؟ وحين دفعت ثمنه لم أكن أدري انني اشتريت مجموعة من أقذع الشتائم الموجهة لي كعربية .

الرواية باللغة الانكليزية . اسم مؤلفها غير موجود — كأنه خجل مما اقترفته يداه حين كتبها ! — والرواية جزء من سلسلة تصدرها دار نشر اميركية هي (اوورد بوكس) ، وهي مهداة إلى رجال المخابرات الاميركية ! واسم بطلها « نيك كارتر » ، وهو عميل اميركي سري على طريقة جيمس بوند .

وتنبهت حواسي كلها وانا أرى ، منذ الغلاف ، عدوانية هذا الكتاب تجاهي كعربية . فعلى الغلاف صورة أوربية عارية يهيمن عليها رجل في اللباس العربي التقليدي (أين المفر ، وكل ما حولنا استفزازي لعروبتنا ، وكل ما حولنا يحاصرنا بسوء فهمه لأمتنا ؟ !) .

اشتريت الكتاب ، وعدت به لأقضي ليلة مؤلمة ... إن نظرة الغربيين السطحية الخاطئة الينا موجعة . فان كانوا يدرون كم يسيئون إلينا بتلك الكتابات التي تسيء تصويرنا ، فتلك مصيبة . اما اذا كانوا لا يدرون ، فالمصيبة أعظم !

احداث الرواية تدور في إحدى العواصم العربية . والمفروض ان هذه العاصمة

(*) كتاب The Arab Plague من سلسلة العميل السري Nick Carter .

هي حالياً السوق الاولى لبيع الرقيق الابيض ، بل ومركز عالمي يتم استيراد الرقيق اليها من كل أنحاء العالم ! وفي هذه المدينة تتعانق التكنولوجيا مع نظريات العصور الوسطى ، وهكذا يتم شراء النساء وتطويعهن بوسائل تكنولوجية حديثة وآلات عصرية علمية لغسيل الدماغ ، ثم يجري استخدامهن في البغاء ، وبالتالي لأغراض التجسس ... كما لو ان كريستين كيلر عربية ، أو « ووتر – جيت » بدوية الموقع ! ..

ودونما خجل ، يسترسل المؤلف المجهول (وحسناً فعل حين خجل من ذكر اسمه) في ذكر « فظاعات » تلك العاصمة العربية المعاصرة ويشبهها بهونغ كونغ من حيث الاتجار بالنساء والخمرة والمخدرات والجاسوسية ، مع العلم ان هذه العاصمة العربية تمثل مركزاً دينياً اسلامياً له حرمته لدى العرب . وأحد مشاهد المطاردة البوليسية يدور وسط موكب الحجاج المسلمين ، حيث يتنكر المجرم بزي حاج ، ويتنكر العميل الاميركي بزي امرأة محجبة ، ويتم التشنيع على الحجاج المؤمنين في فصل كامل يسخر من شعائر المسلمين الدينية . كما يرسم الكتاب صورة غير حقيقية لعالم الاتجار بالرقيق في وطننا العربي ، صورة وهمية لعالم الحريم والخصيان عندنا ، صورة تقليدية طالما شاهدناها في افلام هوليوود الرديئة لكنها لا تمت إلى واقع الشعب العربي المعاصر بصلة ! والأسوأ من ذلك هو ان المؤلف السري يحاول ان يصبغ الكتاب بصبغة الواقعية حيث يستعمل ألفاظاً عربية لأسماء الاماكن والالبسة والاعياد ، بالاضافة إلى بعض الابطال (الاشرار) امثال الأمير العربي الشيخ حازوق والشيخ الحبيب حبا والشيخ عبد الله الكفا وغيرهم ...

وهو في هذه الرواية يحاول ان يرسم العالم العربي كوريث لتخلف العصور الوسطى ، وكحريص على تراث الاستعباد ومدافع عنه ومنظّر عقائدي له ، بل ومستغل لوسائل التكنولوجيا المعاصرة لأجل تكريسه !

والنتيجة ...

صورة بشعة لحقيقة عالمنا العربي ، صورة بربرية همجية غير حقيقية ، ينجو منها البطل « الاميركي الجميل » وينقذ معه البطلة البريطانية وكل الاوروبيات « الراقيات البريئات » اللواتي كدن يذهبن ضحية ازدهار تجارة الرق والخصيان وتمركزها حالياً في العالم العربي !

والقارىء الاوروبي المحايد ، الذي لم تتح له معرفة العالم العربي عن كثب ، سيتأثر دون ريب بهذه الرواية البوليسية المسلية ، وستنغرس في لاوعيه صورة مفرطة